

مجموعة قصصية

اغتيال الربيع

خالد بريه

دار ضاد للنشر والتوزيع

اغتيال الربيع

يتم تخصيص 5% من جميع إصدارات دار ضاد لصالح مستشفى سرطان الأطفال 57357 ومركز مجدي يعقوب للقلب .

أغتيال الربيع

خالد برية

تصميم الغلاف: محمد حواس

المراجعة اللغوية: ضياء محمد عبدالاه

الطبعة الأولى

تصنيف الكتاب: قصص

رقم الإيداع : 2016/27971

ISBN : 978-977-6544-77-2

دار ضــــــــاد ©

الجيزة – اول الهرم 97 ش ترعة الزمر بجوار مسجد نصر الدين

تليفون 0235708048 - 01120801780

Info@daadpub.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

اغتيال الربيع

خالد بريه

إهداء

إلى الذينَ رحلوا، وتركوا أثراً مُمِضاً في جدرانِ قلبيَ المكلوم

نأتي بالأحرفِ لنصوغَ منها الكلمة،
ثم نخلقُ منَ الكلماتِ جُملاً متعددة،
ثم تتوالى الجُمَلُ المنحوتة من جبالِ الكلمات القائمةِ على أساسِ الحرف، لنجعلَ منها أسطراً مصفوفة تملأُ الصفحات، لتُفضي بعدها إلى الكتاب، فبينَ الحرفِ والكتاب خيطٌ رفيعٌ يُنادونَه بالفكرة.
والكتابُ لا يعني شيئاً إن لم يكن ثمةَ قارئ، والقارئُ لا قيمةَ له إن لم يشعر بعظمةِ ما بينَ يديه، ابتداءً بالحرف، وانتهاءً بالحياةِ القائمةِ في بطْنِ الكتاب..
ومن اجتاز سلسلة الخلقِ المبتدئة بالحرفِ والمنتهيةِ بالكتاب، واستوعبَ ما تدعوا إليه، وأحاطَ بما فيها، فقد أخذَ الكتابَ بقوة.
والكتابُ والقارئُ لا يعنيانِ شيئاً، إن لم تصبح الحروفُ والكلماتُ والأسطرُ والصفحاتُ قائمةً بذاتها، ممتزجةً بحامليها، تمشي بين الخلقِ بقوةِ الكتابِ ونوره.
«يا يحيى خُذ الكتاب بقوة»

وفـــوقَ خيــلِ المهابــةِ والجــلال:
رأيتـــه ينـــادي علـــى قـــومٍ
تلبَّسَــــهم الــــذلّ والصــــغار:
اذهبوا فأنتم الطلقاء!

ياسمين

كانت ليلةً باردةً من شتاءٍ عابر، أكملَ القمرُ استدارته، أخذَ مكانه في كبدِ الأفق، وأرسلَ بزهوٍ خيوطَ ضوئه على المدينة، بعد يومٍ بائسٍ شَيَّعت فيه فتاها الجميل الذي مزَّقت قلبه يدٌ غادرة.. حينها كانتِ المدينة ترفلُ في النومِ وقد لَفَّها البردُ والوجع، وشبحُ الموت أفرد على جنباتها جناحيه.

أضواء خافته تتراقصُ في خجلٍ من خلفِ بعضِ النوافذ، وحدها كانت تقارعُ وحشة المكان

- ماما ماما!! ..

صرخاتٌ فزعى شَقَّت بها ياسمين جدران الليل تَردَّدَ صداها في أرجاءِ البيت..

- ما بكِ؟ ما الذي حدث؟ سألتِ الأم وهي تحتضن ياسمين في لهفٍ وخوف.

- صحوتُ من نومي لأشربَ الماء فرأيتني أتحسَّسُ المكان لا أرى شيئاً، كأنَّ عينيَّ قد ودعتا النور. ردَّت ياسمين بصوتٍ متهدج قبل أن تغرق في نوبةِ بكاءٍ هستيري..

والدُ ياسمين يغطُّ في نومه، حلمٌ غريب شغله عن صراخِ ابنته.. قطيعٌ من كلابٍ شاردة خرجت من أعماقِ الكهوفِ البعيدة، ذئابٌ مسعورة التحقت بالقطيع كأنهم على موعدٍ سابق، كان يراهم يسوقونَ الحمير والشياه والنعاج سوقاً، الأسود أغلقت على نفسها الأبواب وغابت، غابَ كل شيءٍ في المدينةِ إلا منهم، سرعان ما نشبت بين الشريكينِ معركة حامية وهو يراقبُ في ذهول،

ذهول لم يقطعه سوى طرقاتٍ عنيفة على بابِ الغرفة لينهضَ مسرعاً مع ابنته وزوجه إلى المشفى.

- العين اليسرى سليمة، لكن ثمَّة خلل بسيط أصاب شبكية اليمنى سيزولُ بتدخلٍ جراحي، لا داعي للقلق.. قال الطبيب بثقةٍ وهو يحملقُ في نتيجةِ الفحوصات المتناثرة على الطاولةِ أمامه!

تشجَّع الوالد ووقع على إقرارٍ بالموافقةِ على إجراءِ العمليةِ لعين ابنته اليمنى.. ساعتان في غرفة العمليات مرتا على العائلةِ كعامينِ زمناً، وكجبلين حِملاً.

خرجَ الطبيب من غرفة العمليات بصورةٍ كالحة، وسحابة ثقيلة من الذهول تخيمُ عليه، خرجَ مسرعـاً واستدعى مجموعة من الأطباءِ لغرفة العمليات، ساعة كاملة أخرى قضاها الفريقُ الطبي، خرج الجميع في اجتماع طارئ، قال الطبيب:

-ماذا نقولُ لوالدها؟ لو علموا أنه خطأ طبي ستكون كارثة علينا، ولم نسلم بعد من حديثِ الناس عن موتِ "فراس" قبل ستةِ أشهر بسبب خطأٍ طبي أيضاً! العملية كانت ناجحة، وعينُ الفتاة لم تكن لتبصر لأنها لم تعد صالحةً لذلك، هكذا قرَّرَ الفريق! انعقد لسانه، واهتزت أركانه، كانَ الخبرُ ثقيلاً على الأب، كأنَّ صاعقةً نزلت عليه من السماء، ذهبَ مسرعاً لرؤية فلذةِ كبده، فرآها مسجى بثوبٍ أخضر، غائبة عن العالم البائس من أثر المخدر، وعينها اليمنى تلفها خرقة بيضاء! الجميع يبكي مصابَ ياسمين، وهي لا تعلمُ شيئاً، لا تعلم أنَّ عينها التي أدمنت رؤية البحر وزرقته، ومنظر الغروب الذي يوحي بالجمالِ والدلالِ

والرحيل، وحديقة المدرسة الموشاة بالورودِ والأزهار، والأطفال المكسوة وجوههم بالبراءةِ والحُسن، ووجه الأم المهيب الذي يبعثُ على الأمان، كل ذلك لم تعلم بعد أنها لن تستطيعَ رؤيتهم بعينها اليمنى التي ذهبت بسببِ خطأٍ طبي فاحش!.

لحظات واكتظَّ المكانُ بالأهلِ والأقاربِ والجيرانِ والناس، والدُ الفتاةِ يزبدُ ويُرعد، والطبيبُ في حالٍ لا يحسدُ عليه.

دخل كبير المنطقة برفقة والد الفتاة على القائمين على المشفى، وطلبوا منهم الاعتراف بخطئهم، وتعويض الفتاة والإسراع بسفرها للخارج على نفقتهم كحلٍّ سريع لتدارك المشكلة!

ظنَّ الطبيب أن تمسكه بموقفه - حفاظاً على سمعته - كونه لم يُخطئ، وأنَّ العملية تمت بنجاح، سيجنبه الغضب العارم الذي يجتاح الجميع، وبلغ حدَّاً لم يكن يتخيله. أقسم والد الفتاة بجميعِ مؤكداتِ القَسَم إنه لن يهدأ إلا بإخراجِ عينِ الطبيب الذي أخطأ في حقِّ عين ابنته ليجعلها في الظلامِ أبدَ الدهر.

لم يستطع جميع من يعمل في المستشفى أن يصنعَ شيئاً حيال الطبيب الذي وقعَ في براثن الغاضبين على مصابِ ابنتهم، الطبيبُ مُنكرٌ لفعلته حفاظاً على سمعته الطبية، ووالد الفتاة مُزْمِعٌ على تنفيذِ قراره بفقءِ عينه، ولن يمنعه أحدٌ من ذلك، ولاسيما في مجتمعٍ تسوده الأعراف التي تدعوا للثأر والتأديب وأخذ الحقِّ دونَ الرجوع لأحد!.

صاح به أحدهم: إن كان ولا بد فلتطرق باب القضاء لتأخذ حقَّكَ كاملاً!

التفت إليه شزراً وقال له: إذاً أموتُ كمداً على ابنتي حتى ينصفني القضاء، إن انتظرت القضاء إني إذاً لمن الساذجين!.

حاول مدير المنشأة الطبية أن يقنع والد ياسمين بتقديم التعويض المناسب، ووعدهم بطردِ الطبيب، لكنَّ أحداً لم يستمع لما يقول، لا يتحدثون إلا عن فقوء العين، ويقولون: العين بالعين!..

في إحدى زوايا المستشفى كانت امرأة تبكي ومعها أربعة أطفال ينتحبون ويجهشون من البكاء، كانت تلك زوجة الطبيب التي علمت بالخبر فجاءت مسرعة للوقوف إلى زوجها المُدان، أما أطفاله فكانوا في حالة هيستيرية مما سيحصل لوالدهم من فقوء عينه أمام الجميع! استيقظت ياسمين تنظر بعينها اليسرى أمها وإخوتها يبكون، ووالدها في يده سكينة حاول إخفاءها، والطبيب محصور في زاوية الغرفة، وأصوات الناس تملأ المكان، وفي إحدى الزوايا أسرة تبكي عائلها الوحيد!

- ما الذي يحدث؟ ماذا جرى؟ سألت ياسمين أمها، كان لزاماً أن تعلم الياسمين بمصابها، بكتْ.. ذوتْ، وأغمضت عينها الأخرى، تمتمت بصوتٍ خافت:

- لك الحمد يا الله، أخذتَ واحدةً وأبقيت الأخرى، فلك الحمد!

غمرها فيضٌ رباني وجرتْ على لسانها حكمة العارفين:

خنقتُ صراخي ثم أخذتُ جثمانه، وقطعته إرباً إرباً ثم دفنته في قلبي.. هيهات، أن يغمر أنيني صفحات الوادي كأنه السيل! فكأني انحدرتُ بدون

خرير مثل الدمع المنهمر! فلا أثرَ لألمي وصراخي تحتَ هذه القبة الصماء الخاوية، خيبتي هي من كانت تئنُّ في صفحاته دونَ عويل! تلكَ اللحظات القدسية جَرَّتْه إلى ذاكرتي، أتخيله يقفُ شامخاً، فوق ربوةٍ مرتفعةٍ يقولُ لمن حوله ممن أنهكهم الخجل من سوء فعالهم: "لا تثريبَ عليكم"، وفوق خيل المهابة والجلال رأيته ينادي على قومٍ تلبَّسَهم الذلُّ والصغار؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء!

لمحتْ بريق دمع أخذ يشق طريقه على وجنات الأطفال وتناهى إلى سمعها نشيجٌ مكبوت يخرجُ مع زفرات أمهم، نهضت من مكانها، أرسلت بصيص النور من عينها اليسرى في أرجاءِ الغرفة كأنها تبحثُ بين من كان حاضراً، عن أحد ما "أشهد الله والناس أجمعين أنني سامحتُ وعفوت عن هذا الطبيب، وأسأل الله أن يصبرنا ويأجرنا وأن يأخذ من أعضائنا حتى يرضى!" قالت ياسمين.

بُهِتَ الجمع، وأُسقط في يدهم، لحظات سكون لفَّتِ المكان، عبَّر بها الكون عن إجلاله، شهادتها في العفوِ والصفحِ والتسامح أعظم من شهادتي في الطب! هكذا حدَّث نفسه الطبيب، وداخَلَه إحساسٌ مفرط بالذنبِ عن الجُرم الذي ارتكبه بحقِّ تلكَ الفتاة ذات الروح الأنقى والإيمان المتعاظم..

في تلكَ اللحظات دخلَ أناس يحملون شاباً عشرينياً نالت منه رصاصة طائشة ودماؤه تملأ المكان، آخرونَ خرجوا يحملونَ نعشاً دفع صاحبه حياته لقاءَ خطأٍ بخس من طبيبٍ آخر، وعلى البابِ مُسنٌّ عجوز وقفَ يوزعُ اللعنات ويصفُ المشفى بالمجزرة!، عبّر آخر عن سخطه بعبارة كتبها على جدران

المستشفى: إن لم تمتْ برصاصةٍ طائشة فستموتُ في تجمُّع بسيارةٍ مفخخة! فإن سلمكَ الله من كل ذلك.. فستموتُ بخطأٍ طبي على يدي طبيبٍ أو ممرضٍ في مستشفياتِ المدينة!.

حُـزنٌ مـن نحـب وتعاسـته،، سـهامٌ غاضـبة تنقشُ في قلوبنا سطورَ الألم.

قبو الأحزان

كان عمره حينها ستة أعوام عندما استوقفته سيارة داكنة متخمة بالسواد؛ لرجلٍ يملأ الحقدَ قلبه، وتظهرُ على وجهه مخايلُ الانتقام، تَمَّ إدخاله فيها قسْراً وعنوة وهو يصـرخُ من أعماقِ قلبه، علَّ أحداً أن ينتشله من براثنِ الخاطفِ الأثيم.

لم يعلم حينها أين تأخذه الأقدار، ولم يكن يُجيدُ سوى البكاء على أمِّه. تساؤلات مثيرة تحوم حوله، من أنت؟! ماذا تريد مني؟! أين سأذهب؟ أين تريد أن تأخذني؟! تساؤلات ممزوجة بمرارةِ الخوفِ والبكاء.

سمعَ المخْتَطِف يتحدثُ في هاتفه لأحدِ أصدقائه؛ أنَّ المهمة تمَّت بنجاح، وهو الآن في طريقه لمدينة صنعاء. تناهى إلى مسمعه "مدينة صنعاء" فكادت تطفرُ من عينيه دمعة، وعادت به الذكريات لتلكَ الليلةِ الأليمة؛ عندما اعتدى والده على أمِّه بالضرب المبرح؛ وهو يشاهدُ ما يحدثُ لها بأمِّ عينيه الصغيرتين، وسمعَ والده يلقي كلمة الطلاق كقذيفةٍ بشعة قوضت كل شيء، ومنذ تلكَ اللحظة وهو يعيشُ في كنفِ والدته التي عانت من ظلم زوجها وطيشه وانفعالاته.

في تلك الليلة قرَّرَ والد عصام الرحيل إلى صنعاء ليعيش حياةً أكثر حرية وروعة في صحبةِ أصدقائه القادة في أحدِ الأحزاب القومية؛ الذي أخذَ عليه كل تفكيره وعقله.

سمع عصام تهديد والده لأمِّه: "سأحرقُ قلبكِ على عصام".

تذكَّرَ هذه الذكرى المريرة، وعلم - وهو ابن السادسة - أنَّ والده وفى بتهديده في حرقِ قلبِها.

للوهلةِ الأولى منذُ دخوله "صنعاء" في جنحِ الليلِ المظلم، والجبال تحوطها من كل جانبٍ في منظرٍ مهيب.. تمْتَمَ في نفسه هنا سأعيش بعيداً عن أمي..! فأجهشَ بالبكاءِ وعمَّه الخوفُ والصمم.

في صباح اليوم الأول وجد عصام نفسه في غرفةٍ صغيرة لا تصلحُ للعيش؛ أشبه ما تكونُ بسجنٍ انفرادي، سمعَ صوت خالته - زوجة أبيه - تصيح في وجهه: هنا مكانك، وهذه غرفة عيشكَ منذ الآن.

كان عصام عصامياً منذ طفولته، لم يستسلم لهذا الوضع الجديد بكلِّ سهولة، ولم يكن له من وسيلةٍ للرفضِ إلا البكاء ، والبكاءُ فقط .

كانَ طفلاً وحيداً، يعيشُ حياةً رغيدة مفعمة بالدلالِ والحب في ظلِّ والديه؛ قبل أن تَهُبَّ رياح السموم المحملة بالخلافاتِ التي كان من نتائجها الفراق والشتات على مرِّ السنين.

لم يتصور نفسه وهو في المطبخ يعملُ ويقومُ بنشر الغسيل والنظافة، وحمْلِ القمامة حافيَ القدمينِ، رثَّ الملابس.. ووالده القياديُّ البارز وصاحبُ الأموال.

لم تكنِ الأيام كفيلة بنسيانِ عصام لأُمِّه ولو للحظة واحدة، ظلَّ يبكي ويطالبُ بحقه في العودة، لكنَّ عصا القسوة والحقد الذي ملأ قلبَ والده على أمِّه تجسَّد في الضربِ الذي لحِقَ به؛ لتمتزجَ أنَّاته المتعبة بهزيعِ الليلِ القارص في صنعاء.

في المدرسة، وفي طابور الصباح وجدَ عصام نفسه يهتف "تحيا الجمهورية".. ويسير في صفٍ مستقيم لدخولِ الفصل الدراسي.

هناك حيث تقعد الأم تبكي طفلها المختطف منذُ سنةٍ تقريباً وهي تعاني الحرمان وتشكو قسوة الفقد الذي ألبسَ حياتها السواد.. جاءها هاتفٌ من صنعاء يخبرها أنَّ عصام يعيشُ مع أبيه، وقصَّ عليها طرفاً من خبره.. وأخبرها بدخوله المدرسة الابتدائية في حي حدة بصنعاء.

انفرجتْ أساريرها حينَ بزغَ نور من رحمِ صنعاء يخبرها بمكانِ فلذةِ كبدها، خبر أعاد الحياةَ لوجهها الشاحب الممتلئ حزناً على صغيرها.

في قاعة الدراسة كان يقضي عصام أغلبَ وقته هائماً شاردَ الذهنِ يتذكَّرُ أمَّه المُغيَّبة عن نافذةِ قلبه، ثم ما تلبث أن تندَّ من عينيه دموع الشوق والأحزان، وظلَّ على تلكَ الحالِ أياماً.

أميرة- معلمة عصام- لاحظت ما يعانيه، وشعرت أنَّ شيئاً ما يخفيه قلبه الصغير، أخذته جانباً في فترةِ الراحة، وراحت تداعبه وتثني على ذكائه وخَطِّه الجميل مع أنه في المرحلةِ الأولى من الدراسة. ابتسمَ عصام ابتسامة خفيفة وشكرها على لطفها وثنائها ، قالت له:

- عصام مالي أراكَ حزيناً كئيباً ؟هل تشكوا من شيء؟.

- هل أغضبكَ أحد الأطفال في صَفِّكَ، أو أزعجكَ أحد المدرسين؟ صمتَ عصام ولم ينبسْ ببنتِ شفه.

- قالت له: حدثني يا عصام فأنا مثل أمك.

انفجرَ ببكاء مُمِضٍّ محرق عند ذِكْرِ أمِّه، فحدَّثها بكلِّ شيء يعانيه منذ فقدها، لم تتمالك نفسها هي الأخرى؛ فانفجرت باكيةً حال هذا الطفل الذي يشكوا داء البُعادِ عن أمِّه.

في اجتماعٍ جمعَ بينهن تحدثت أميرة أمام المديرة وباقي المدرسات بكلِّ تفاصيل قصة عصام وما يعانيه، فتعاطفن معه وقرَّرَنَ أن يبحثن عن هاتفِ أمه لتحدثه كل يوم في فترةِ الراحة المدرسية بشكلٍ مرتب وسري، بعد جهدٍ وعناء واتصال ببعضِ الشخصيات التي تسكنُ في مدينة أم عصام تمكَّنت المديرة من الحصول على رقم هاتفها المنزلي. في الساعة التاسعة والنصف صباحاً جاءت المعلمة لفصلِ "عصام" واستأذنت له بالخروج .

- المديرة تريدُ الحديثَ معك.

- معي أنا.

- نعم.

دخل إدارة المدرسة برفقةِ معلمته ووجدَ جمعاً من المدرسات بالداخلِ ينظرنَ إليه نظرةَ إشفاقٍ مليئةٍ بالحبِّ والحنان.

- المديرة: تفضَّل يا عصام، اجلس بالقربِ مني، لديَّ لكَ مفاجأة جميلة ستعجبك كثيراً.. لوهلةٍ، ظنَّ عصام أنها ستهديه جائزةً تشجيعية لجمالِ خَطِّه وذكائه ونيله المرتبة الأولى في اختبار الشهري في بعض المواد، لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، وإنما ناولتْه سماعة الهاتف وقالت له : تحدث.

- ألو.. حبيبي عصام كيفَ حالكَ معك "ماما" يا عيون ماما.. اختلطَ الحديثُ بالبكاء، وهو يصيحُ في سماعةِ الهاتف ماما ماما ليُشبعَ بها شوقه ولهفته لرؤيتها.

ضجَّ الجميعُ بالبكاء، لم يبقَ أحد في الإدارةِ إلا ومسح شيئاً من دمعاتٍ متساقطة.. وكانت لحظات مشحونة بالعاطفةِ والحبِّ والحنين.

تكرَّرَ هذا الأمر كثيراً.. فكانَ عصام ما بين الفينة والأخرى يحادثُ أمَّه في الهاتف، يشكوا إليها ظلمَ زوجة أبيه وقسوتها، ويعبر لها بما يستطيع عن حُبِّه وشوقه للقائها.

كانَ عصام بعد كل حديثٍ مع أمِّه يعودُ إلى المنزلِ بوجهٍ شاحبٍ حزين، وفكْرٍ شارد، أحسَّ والده بهذا التغير المفاجئ فقرَّرَ زيارة المدرسة.

استقبلتْه بوابلٍ من العتابِ القاسي والكلماتِ المؤلمة، ونعتته بقسوةِ القلبِ وجفاءِ المشاعر، علمَ من حديثها أنَّ عصام أخبرها بكلِّ شيء ، فما كان منه إلى أن قام بتحويله لمدرسةٍ أخرى، اشترطَ عليهم وشدَّدَ على عدمِ السماح له بمحادثة أمِّه، وهذا ما كان.

«٢»

في الساعة الثامنة صباحاً كان عصام في مطار صنعاء برفقةِ والده وزوجة أبيه وإخوته لأبيه، متجهينَ إلى "بغداد" الرشيد. في الفندق الجميل المطلّ على إحدى شوارعِ بغداد الرئيسة كانَ غاضباً يشتهي رؤية أمِّه والحديث معها.

علم والد عصام أنه بدأ يكبر، ويدركُ جيداً بُعْدَه عن أمِّه كل هذه السنين العجاف، فَفَكَّرَ في مكيدةٍ لإبقائه أكبر قدر ممكن تحت سيطرته بعيداً عن أمِّه ليحرقَ قلبها كما وعدَها وهدَّدَها ذات يوم.

سنذهبُ غداً إلى أشهرِ طبيبٍ نفسي عرفته بغداد لنعرضَ عليه حالة عصام النفسية المضطربة. في عيادة الطبيب كان البروتوكول المتعارف عليه أن يُعرَضَ المريضُ على "نائبِ الدكتور" لأخذِ كافة المعلومات لعرضها على الطبيب الأكبر، أُحيلَ ملف عصام على الطبيب، وتمَّ تحديد الموعد بينهما بعد يومين.

مضتِ اليومان بسرعةِ البرق ليجد عصام نفسه في حضرة الطبيب النفسي الأشهر في بغداد، الشيب يغطي رأسه، عليه مسحة وقار، والمهابة تعلو محياه، طلبَ الانفراد بعصام فكان له ذلك ..

- الطبيب سلامات يا دكتور عصام.. ما الذي تشعرُ به ؟!

- ما هي الحالة التي تعتريك؟!

- لماذا يشكوا والدكَ من كثرةِ اضطراباتكَ ومشاكلكَ؟

- هل ثمة أمر يؤرقكَ ويجعلكَ في شرودٍ دائم، واضطراب متواصل، وعزلة دائمةٍ عن الآخرين؟.

- أجاب عصام: ليس لديَّ أيُّ اضطراباتٍ ولا أعاني من أمراضٍ نفسية، الشيء الوحيد الذي يؤرقني هي حياتي! أعني أمي. وحكى له الخبر... ! غضبَ الطبيب من تصرفات والده الرعناء وقال بصوتٍ مبحوح: لا يجوزُ أن يُحرمَ طفلٌ من أمِّه كل هذه السنين، وأن يُعامل بهذه القسوة اللاإنسانية.

ما كنتُ أتوقع أن يصل الحال بالإنسان أن ينحدرَ لدرجةٍ يتخلى فيها عن إنسانيته وأبوته وقيمه وفطرته، ويعيش حياة الغاب مع فلذةِ كبده.. استدعى الطبيبُ والد عصام وصبَّ عليه كلماتٍ كالحمم.. يُشتَمُّ منها رائحة الغضب والسخط الذي اعتراه، حاول التنصل منها بتكذيبها وتكذيبِ عصام وأنه طفل مصابٌ باضطراباتٍ تفقده السيطرة على أفعاله وتجعله يهرفُ بما لا يعرف.. كان الطبيبُ فطناً، وأدركَ كذبَ والدِ عصام، فقرَّرَ إدخال عصام في غرفة التنويم المغناطيسي وهنا كانتِ المفاجأة!.

أثناء تنويم عصام تحدَّث بكلماتٍ أبكت الطبيب، وجعلته ينتحبُ كالأطفال. قال له بصوته البريء ونبرته الطفولية الحزينة: يا دكتور تخيَّل لو أنَّ هناكَ من فرَّقَ بينكَ وبين طفلك الصغير لسنواتٍ، كيف سيكونُ حالك، وما هو شعورك؟ بكى الطبيب من كلماتِ عصام التي أخرجها من أعماقِ مأساته المكبوتة في قلبه وعقله، وتعلُّقِه بأمِّه التي اختُطِفَ منها وأُبعِدَ عنها قسْراً وظلماً.

كتبَ الطبيبُ تشخيصه لحالة عصام بأنه بكاملِ قواه العقلية وأنه طفلٌ فطن ذكي، يعاني الحرمان والظلم من قبلِ أبيه وزوجته.

كانَ التشخيص صادماً لوالدِ عصام وأتت رياحُ مكْرِه بما لا تشتهي سفنه، وشعرَ بغصَّةٍ في حلقه من هذا الطبيب الذي نَسَفَ كل خططه في إبقاءِ عصام، متلذذاً بحرقِ قلبِ أمِّه الفارغ إلا من ذكراه.

بقيَ عصام في مدينة بغداد بضعة أيام، يستنشقُ عبيرها، ويرشفُ من ماء نهرها، ويستلهمُ العظمة منها، إنها بغداد الإسلام وعاصمة الفكر ومأوى العلماء.

في الطائرة وفوق مدينة صنعاء ينظر عصام إلى المدينة الحصينة ويتذكَّرُ ليالي الشتاءِ المظلمة التي قضاها في "قبو الأحزان" بعيداً عن نور الحياة وشمس الدنا .

بدأ العام الدراسي الجديد لمرحلةٍ جديدةٍ لطالبٍ طموح، غارقٌ في وحْلِ الأحزان، لم تعوقه كل الصعاب التي عاشها ويعيشها أن يحقِّقَ المرتبة الأولى على زملائه، في حصةِ اللغة العربية تحدَّث المعلمُ عن اللغةِ وعظمتها وفنونها، وإهمالِ الأمة لها لهثاً وراء اللغات الأخرى تبعيةً للآخرين، وتنصلاً من لغتنا الرائعة التي تحفظُ هويتنا وقيمنا. في إحدى دروسه عنِ التعبير المنبعثِ من مكنوناتِ الفؤاد، قرَّرَ عليهم تعبيراً مفتوحاً لكلِّ طالب حقُّ الاختيار، مرت الفترة التي مُنحت لهم للكتابة، فوقعت عين المدرس على عصام ليلقي ما كَتَبَه أمام التلاميذ.

نهضَ عصام ليقرأ ما أملاه عليه قلبه المكلوم من كلماتٍ تجسَّدت في بضعةِ أسطر على ورقةٍ بيضاء بُلِّلَت بدموعِ الشوق.

"الغائبة القريبة من الروح، عليكِ السلام .

أمي..

في الساعةِ المشؤومة التي غادرتُ فيها مرتعَ طفولتي قسْـراً أحسستُ بأني أحملُ في كبدي كل أوجاع الدنيا، وأني لن أفلحَ في رؤية ثغركِ الباسم بعد تلكَ الحادثة، وضعتُ رأسي بينَ يدي، وتركتُ لعينيَّ الطريقَ مفتوحاً لتفيضَ أوديةُ الدموع المنصبةِ على خدِّ طفلٍ صغير تُذَكِّرُني بكِ كلما نَضَبَ الشوقُ إليكِ من وعثاءِ الألمِ والحرمان.

عندما غابتْ عني ملامحُ الحي الذي كنتِ نوره وبهاءه، أغمضتُ عينيَّ في استرخاءٍ ناعس، علَّ اضطرابَ أفكاري وخوفي ودموعي أن تهدأَ قليلاً، جعلتُ أنظرُ من خلفِ تلكَ الحافلةِ التي حالت بينَ قلبينِ وجسدين، فتتجلى صورتكِ البهية تُضاهي شمسَ ذلكَ اليوم المشهود.

أمي ..

في طريقي إلى مدينةِ الليالي المظلمة، لم تتزحزحْ صورتكِ من مخيلتي، صحيحٌ أنني كنتُ حينها في السادسةِ من عمري؛ لكنَّ الحبَّ لا يؤمنُ بقانونِ الأعمار، فوهجُ الحُبِّ إذا تمكَّنَ في قلبِ المُحب يصير اليابس أخضـراً والمالح عذباً سلسبيلاً..

مرّتْ في طريقي جبالٌ لم أرها في حياتي من قبل فشاهدتكِ فيها، رأيتكِ تتجلين في خشوعها ومهابتها، رأيتكِ في حقولها الخضراء وصخورها ومراعيها، رأيتكِ في الأودية التي تشقُّ عُبابَ الجبالِ الرواسي فتنشرُ الماءَ بين السواقي كما تنشرينَ حبكِ في ضلوعنا وقلوبنا العطشى إلا من مائك.

أمي..

سيُخلِّدُ التاريخُ حُبَّنا ونِضالنا وجهادنا في نشرِ الحُبِّ بينَ الأحجارِ المتحركةِ المتمثلة بهيئة إنسان، سيحتفي الكونُ بلقائنا في ذلكَ اليوم المشهود، المولودِ من رحمِ الأمل، سيتحدثُ الجميعُ عن بكاءِ الشوق الذي ينبعثُ من قلبِ محبٍّ عالجَ ظلامَ البُعْدِ والفرقة والاجتثاث".

أمي..

"حالي بعد غيابكِ مثلُ طيرٍ ألقتْ به الريح بينَ الدوح منتوفَ الذيل، فلا يقوى على تحديدِ الاتجاه، يطيرُ حتى يصطدمَ بشيء فيسقط ليستريح.. أذكركِ إذا أقبلَ الليل وخيَّم، فأظلُ أتقلَّبُ من ألمٍ لآخر حتى أسقطَ على فراشي الرقيق في غرفة الآلام".

إنني اختنقُ يا أمي، وكأنَّ شخصاً يدوسُ على قلبي، فأصبحُ ضعيفاً، حتى أنني أتمني أن أتهاوى من مكانٍ ما، استريحُ من عذاباتِ الفراق والألم. انتظريني أمي كل يومٍ في كل مساءٍ وعندَ كل صباحِ ما بقيت الروح. أنهى عصام كلماته على وقْعِ تصفيقٍ حار من قبل المدرس والتلاميذ؛ إعجاباً بما سَطَّرَه من مشاعرٍ دونَ علم بفحواها.

في أحدِ الأيام وفي أثناءِ عودته من المدرسة وجدَ ورقةً في الأرضِ مكتوب عليها: "مَا أجملَ أن أواجه الظلامَ والأنواء والجُوع.. والمصائبَ والمآسي واللوم والتقريع ..كما يواجهها الحيوان وتواجهها الأشجار والزروع".

وقعَ الكلام في قلبه وأحسَّ ببردِ الرضا ينسكبُ بين ضلوعه من أثرِ الكلمات
.

والدة عصام تدخلُ مدينة "صنعاء" للقاءِ فلذة كبدها، بدأتْ بالبحثِ عنه والسؤال عن مكانِ إقامته؛ لتكتحلَ عيناها برؤيةِ طفلها المُختَطَف منذُ سنين، بعد أيامٍ من البحثِ المتواصل؛ اهتدت لمكانِ إقامته، علمَ والده بقدومها فظهرت آثارُ الانتقام على وجهه، فأعطى توجيهاته بعدمِ خروج عصام من بابِ المنزل، كل هذا وعصام يتلوى في غرفته ألماً من آثارِ الضرب المبرح والحرق في جسده من قبل زوجة أبيه في الليلةِ السابقة.

والدة عصام برفقة أختها أمام منزل والد عصام، علم الجميع في المنزل بقدومها حتى عصام علم بذلك، وبدأ قلبه بالخفقان، خرج والده ليرى زوجته السابقة المظلومة منه على مرِّ السنين والمكلومة على طفلها، فصاح في وجهها وهددها وأزبد وأرعد وعصام من خلفِ الباب يسمع، قالت له: أتوسَّلُ إليك لا أريدُ إلا رؤية ولدي ولو للحظة، أشتهي أن أضمه إلى صدري، أُقبِّلُ قدميك، كان عصام في الداخل يصرخُ باكياً وأمه في الخارج تبكي متوسلة مستجدية، نظر عصام إلى أمِّه من ثُقب الباب وهو ينادي أمي أمي يا أمي....! وهي تبكي وتنتحبُ وتصرخ: عصام حبيبي سمعتُ صوتك يا حبيبي....! أمي.. يقولها ممزوجة ببكاءِ الحرمان، أمي لا تتركيني في براثنِ هؤلاء.. أمي.. أمي.. كانت آخر كلمةٍ سمعها وأمه مدبرة مكرهة ودموعها تسبقها، "لكَ الله يا عصام .. لكَ الله يا عصام".

خَفَتَ الصوتُ شيئاً فشيئاً لينقطعَ حبلُ الأمل الذي لاحَ بقدومها.. دخل عصام في عُزلةٍ مع الحياة بعد أن سمعَ صوتَ أمِّه ولم يتمكَّن من اللقاء بها؛ بسببِ جدرانِ الشوك التي حالت دونَ ذلك.

اشتدَّ الأذى من زوجةِ أبيه بشكلٍ جنوني حتى كاد أن يلقى حتفه في مرات كثيرة .

مرت سنتين متتاليتين بعدَ تلك الليلة التي مُنعَ فيها من لقاءِ أمِّه.. كل الذي رآه فيها الضرب والإهانة والتقريع والإذلال .

في إحدى الليالي شديدة البرودة، كانَ الليل بليغ السكون، ذهب عصام لنومه مبكراً بعدَ عناءِ يومٍ شاق في خدمةِ زوجةِ أبيه، سمعَ باب الغرفة يُطرقُ بشكلٍ مثير، مزَّق سكونَ الليل، قام فَزِعاً من نومه يعتريه الخوف، تقدَّم نحو الباب لفتحه وإذا بزوجة أبيه تضربه على وجهه وترعد وتزبد وتهدد وتتوعد.. كل ذلك أنَّ عصاماً نسي خرقة (قطعة قماش) فوق الباب أغلقته ولم يفتح إلا بشدةٍ وعناء.. وقبلَ أن تتركه في غرفته باكياً متوسلاً هددته أنَّ الغداة سيكونُ يوماً خالصاً لتأديبكَ وتربيتك .

"كان منتصفُ الليل موعد العصفور المختطف.. لم تكن ثمة فُسحة للتغريدِ بالنهار بعد اليوم.. وأنَّى له ذلك؛ وهذه بنادق القناصة الخاطفون قد شرعت فوهاتها الرهيبة تجاه كل الأشجار الخضراء.. تنتظرُ سماع ترتيلة واحدة من ترانيمِ الشوق؛ لإخراس صوت الحياة الجميل غدراً، بألف طلقةٍ وطلقة ".

ارتحلَ النوم من عينيه، يفكِّر بحلٍّ للخلاص من شرِّها وظلمها، انتظر والده كي يشكوها إليه؛ فأغلقَ الأبوابَ في وجهه وقال بصوتٍ منزعج: "سأمتُ من مشاكلك وأذيتك وسوء خلقك". أغمضَ عينيه، وهو يشعرُ باختناقٍ في أنفاسه، وحرقة في روحه.. وباتَ بشرِّ ليلة. وما إن صدحتْ كلمةُ التوحيدِ من مآذنِ صنعاء مؤذنةً بدخولِ فجرٍ جديد بعد ليلٍ ثقيلٍ طال أمده، كانتْ لحظة الرحيل .

خرج عصام متخفِّياً متسللاً من المنزلِ للمجهول! ، لم يكن حينها يمتلكُ أي شيء، ولم يكن بحوزته سوى ملابسه التي يرتديها.. أثناء نزوله علمَ بحركته أحدُ جيرانه من دولة "السودان" الشقيق فناداه متعجباً: أين تذهب في هذا الوقت؟! سأرحل، نعم قررتُ الهربَ من ظلمِ هؤلاء الذين لا يجيدونَ سوى قتل الحياة، لم أعد أستطيعُ العيشَ هنا. أخذه في أحضانه وقال له: منذ فترةٍ تمنيتُ لكَ ذلك، الفرار من هولِ الجحيم الذي تعيشه منذُ سنين.. أعطاه مبلغاً من المال وقال له: استودعكَ الله يا بُني، وأشاحَ بوجهه باكياً لحالِ الطفل وما آل إليه الأمر.

عصام يتحدثُ عن نفسه في تلكَ اللحظة:

عندما قرَّرتُ الفرارَ من سجنِ الآلام؛ خرجتُ حبواً نحو عَالَمٍ لا أعرفُ عنه وفيه سوى امرأةٍ تقضي ليلها تُرتِّلُ ترانيم الأحزانِ المسمى بسيمفونية الأسى، خرجتُ هائماً على وجهي كطيرٍ شارد، أركضُ لا أدري أين طريقي، ألقيتُ بنفسي في أحضانه أتلمَّس معلماً ألجُ منه إلى البقعةِ العتيقةِ التي اختُطفتُ منها.. حاولتُ أثناء هروبي إلى الحرية أن أكبحَ جماح الألم حتى ترسوا سفينة

قلبي على شاطئ قلبي! وشعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في البكاء يسكِّن آلامي الغائرة في جدران قلبي المكلوم.. كانتِ المدينة نائمةً يوم قررتُ الرحيل، تُهْتُ في الدروبِ والأروقة، لم أجدْ بُدَّاً من انتظارِ ميلادِ شمسِ الحياة، ليُبعثَ الموتى من قبورِ مساكنهم فأسألهم طريقَ العودة إلى الوطن! أعني أمي.

أفاقَ القومُ من سَكْرةِ نومهم على طفلٍ حافيَ القدمينْ يخطوا كالملهوفِ لا يدري أين يسير! تمرُّ الحافلات محملة بأشخاصٍ يصنعونَ الحياة مع كلِ صباح، يسيرُ إليهم ويلوِّحُ بكلتى يديه أن قفوا، لكنَّ أحداً لم يقف.

المارة يسيرون وهو يتأمل في سحنات وجوههم وهيئاتهم؛ علَّه أن يظفر بمن يدله على سيارةٍ تُقِلّه من صنعاء لمدينته اليتيمة، أمام موكبِ السيارات المتنقلة بين المدنِ والمحافظات؛ وقفَ عصام يبحثُ عن مكانِ مدينته التي تركها منذ سنوات، فعندما عثر عليها، كانت المفاجأة..! أنَّ الجميع رفض إيصاله وحمله لصغر سنه، وهنا كادت أن تظلم في وجهه السماء متخطية إشراق الصباح الجميل، لكنه بحيلةٍ ذكية استطاع أن يقنع السائق بحجة مكَّنتْه من صعودِ السيارة متجهاً إلى حيثُ هواه.

شريطُ الذكرياتِ يمرُّ في خاطره وهو في طريقه للعودة هرباً من جور القريب، تساءل في نفسه عن الأسباب التي حملت والده أن يفعل به كل الذي فعل، تذكَّرَ كل ليلة يهجم عليه الليل بسكونه وسطوته حاملاً معه الخوف والبرد في قلب طفل بائس راح "ضحية انتقام رخيص"؛ لتصبح قصته عنواناً صارخاً لآباء

يعقون أبنائهم، تذكَّر الضرب والشتم والإذلال والتعيير والإهانة وانتهاك أبسط حقوقه وكرامته في زمن اللاإنسانية .

ضوء الشمسِ القادمِ من خلفِ جبالِ صنعاء العتيدة ينشرُ الحياة في المدينةِ التي شهدت معاناته وعلى مسرحها كانت قصة الشقاء، جداول الماء وزقزقة العصافير، والطيور الراحلة للبقاء، وخضرة الأشجار وشموخها، جمالٌ قشيبْ أزاحَ غبار الأسى عن عينيه، ورسالة إلهية مفادها: "أنَّ الحياة جميلة وإن لُطختْ بالسوادِ من قبل بعضِ الأحجار".

الغيوم تتجمع والسماء توشك أن تبكي خطايا التُعساء، وبؤسَ الأشقياء، وظلم ذوي القُربى.

لا يعرفُ المدينةَ جيداً ولا يستذكرها.. فالوردة إن قُطفتْ أنَّى لها أن تتفتَّح وترى النور، نزل عصام إلى المدينة بحثاً عن نصفه الآخر، فمنذ ثمان سنوات أو تزيد وهو يبحث عنها في اليقظة والمنام، كما تاه في أروقةِ صنعاء بحثاً عن المخرج، يتوه الآن في أروقة مدينته بحثاً عن سقفِ بيتٍ صغيرٍ يأوي الحياةَ بداخله.

أمامَ المنزلِ القديم أقفْ، هزتني الأشواقُ إلى الأيامِ الخوالي، فلم أستطع يا سادتي كبح جماح الحنين إلى ترابه وأعمدته، فألقيتُ بنفسي وروحي نحوه لأرتقي في معراج المحبين بلقاءِ من أحب، فُتح الباب، رأتني جدتي التي احدودبَ ظهرها فما عرفتني لكنها اشتمَّت رائحة حفيدها فصرختْ من أعماقِ فؤادها، عصام .. جاء عصام .. ارتميتُ في أحضانها، لأدخل في غيبوبة لبضع ساعاتٍ

من هولِ الإرهاقِ والمصاعبِ والآلام التي لحقتْ بي، أفقتُ لأجدَ البيتَ مكتظاً بالبشر أهلي وأقاربي وجيراني.. قلَّبْتُ النظرَ فيهم أبحثُ عنها، سمعتُ صوتاً يشقُّ الحاضرين (أمُّكَ ستأتي الآن).. إذاً لم تكنْ أمي في تلكَ اللحظة بين الجمع، أخذوني في أعماقِ أحضانهم قبَّلوا رأسي ويدي، فرحوا بي وضجُّوا حولي، وجميعنا ذرف دموعَ اللقاء.. أخبرتهم بما حدثَ لي من ساعة الاختطاف إلى لحظة الوصول إليهم.. أصبح المنزل يومَ عيد، كل من سمع بقدومي جاءَ إلى البيتِ زائراً.. بعد ساعاتٍ من الانتظار قدمتْ أمي، طَرَقتِ الباب فشقَّ لها الحاضرون الطريق إلى الحبيب، التقتْ عيني في عينها لأول مرةٍ منذ ثمانِ سنوات، لم أقو على الحراك، أتأمَّلُ كل شيء في أمي بعد أن فرَّقَتْ بيننا الأحجار، هَرَعتْ أمي نحوي وهَرعتُ نحوها؛ لأقبِّلَ يديها وأذوب في أحضانها، وأدفن في صدرها حريق قلبي، هربتُ بين ذراعيها من الليالي الموحشة والنظرات القاسية التي لم تحتملها نفسي، ما من أحد كان موجوداً إلا وانحدرت من عينيه دمعة، حتى سماء تلك الليلة بكتْ قليلاً من حميمية اللقاء بين طفلٍ مُخْتَطَف وأم هدَّها الشوق..

استيقظَ والدُ عصام يبحثُ عنه فلم يجد أحداً في الغرفة، وجدَ ورقةً مطوية في فراشِ عصام:

السلام عليكم ..

والدي..

من شقاءِ الأيامِ أفِرْ، ومن هَولِ الليالي المظلمةِ أرحل..

فَرَرتُ من جحيمكِ إلى جنَّةِ الله، ثمان سنوات أو تزيد نلتُ فيها منكما أنتَ وزوجك كل أصناف العذاب والإذلال والكبتِ والاحتقار..

ما زالتْ جروحي الغائرة في جسدي شاهدة على جُرْمٍ فظيع حلَّ بطفلٍ صغير .

ما زلتُ أتذكر كيف صيَّرْتني عبداً لزوجتك، ما أنصفتني يوماً من ظلمها، ما تحركتْ فيك يوماً عاطفة الأبوة، كنتُ أقصدكَ شاكياً من ظلمها فتغلق في وجهي الأبواب، كنتُ أتمنى الموتَ بسببكما. سأرحل ولن تراني بعدها ..

لا تنسى أن تتذكرَ أن ثمَّة يوماً يجتمعُ فيه الخلائق، ويُنصبُ الميزان، ويقضي الله – فيه - بين الخصوم.. تذكَّر أنكَ ستكونُ خصمي ولن أسامحك .

ولدكَ عصام .

«٣»

بعد مُضي أعوامٍ ثقيلةٍ قضاها في "قبو الأحزان"، عادت الحياة إليه رويداً رويداً، وفي ليلةٍ من صيفِ تهامة، زُفَّ "عصام" لزوجه في حفلٍ بهي طوى شيئاً من صفحةِ الماضي المُثقلِ بالألم.

قبلَ ذلك، كانت أمه قد تزوجت في دولةٍ أخرى بعيداً، وقَدِمَت لحضورِ حفل مراسم الزواج، وقد حانَ الرحيل.. في وداعيةٍ حزينةٍ بكى عصام أُمَّه، هدَّه داءُ الرحيل.. وما الحياة سوى رحيلٍ تختلفُ أشكاله باختلافِ الراحلين.. وكم هي قاسية تلك اللحظات التي تودِّعُ فيها من يعيشُ فيك، سقى الله الراحلينَ ماءَ الوصال.. قال عصام في حديثٍ مع نفسه.

ودرات عجلةُ الأيام، وطوى الزمانُ من خلفه عشر سنين مضت منذ الليلة التي زُفَّ فيها عصام.. ولم يكن يؤرقه شيء سوى صوت طفلٍ يناديه بابا.. يصبُّ عليه الرحمات والهبات والحنان الذي غادره منذ زمن ..

تقلَّبَ من طبيبٍ لآخر يبحثُ عن بارقةِ أملٍ يتشبثُ بها، تَهَبُ له طفلاً تسعدُ بمقْدَمه الأيام .. لكنَّ الأيام لم تسعد بمقدم طفل يخففُ الألم الدفين في قلب عصام. فقد قال له الطبيب ذات ليلة: **إنك تعاني من مشكلات قديمة سببها ضربات قاسية تلقيتها في صغرك تحول بينك وبين الإنجاب**.. غابَ عصامُ قليلاً، وارتسمَ السواد في وجهه، وأخذت شعلة الحياة تخبو شيئاً فشيئاً، وتوالت ذكريات الليالي المظلمة تتجلى أمامه بكلِّ بشاعةٍ وصرامة.. كان يحلمُ بطفلٍ يدخُل حياته فاتحاً أبوابَ الحياة، يمسحُ بيديه الصغيرتين وجهاً شاحباً، ويتسللُ

بروحه النقية يزيح ركام الجمود والصدأ، كان يحنُّ لطفلٍ ينسيه سنوات الألم، ليغفر للزمن ما عانى فيه من تشردٍ وحرمان، وما ذاقَ فيه من مرارةِ الفراق، نهض عصام وهو يرجع الأمر لله أولاً وأخيراً.. ثم انصرفَ يجترُّ خيبةً مُنيَ بها أتت على بنيانِ أمله المنشود.

كانت زوجته تتحاشي أن تعيده لذكريات السنوات التي قضاها بعيداً عن أمِّه؛ لما تخلفه تلكَ الذكرى من ألمٍ غائر في قلبه.. تماهى مع حياته دونَ طفلٍ ينادي عليه، وعاشَ بسعادةٍ مع زوجته، وفتحت له الدنيا شيئاً من أبوابها، فتقلبَّ في النعم، وحظي بشيءٍ من الرزق، وعاشَ في صفاءٍ وهناءٍ ورضا، يأملُ دوماً بصبي يُخُلِّدُ ذكراه.

ما بينِ حينٍ وآخر كان يشدُّ رحاله لزيارة أمِّه، يسدُّ بها فجواتٍ ملتاعة لقلبٍ مثخن بالألم، تعيد إليه الحياة، تهَبُ له شيئاً من عاطفة وحبٍّ غادراه منذ رحيلها .. رؤيتها توقفُ تيار الزمنِ المتدفق بلا رحمة.

عَمِلت السنينُ عملها في عصام، وخطَّ الألمُ ثقوباً بالغةً في جسده.. فتوالت عليه الأمراض، وجعلت من جسده مستقراً لها.. طار عصام لعواصم عربية يتلمسُ الشفاء، اشتدَّ به الخناق، وضاقت أروقة الأمل، واتسعت رقعة الألم، وسقطَ عصامُ مجدداً في "قبو الأحزان" مرتمياً على ظهر سريرٍ أبيض يخففُ حدة السواد المتعاظم في حياته ..

استقرَّ عصام في منزله.. لا يطمحُ لشيءٍ أكثر من عافيةٍ تبقيه في سجل الأحياء، باتَ يتردد بين منزله ومركز الغسيل، باتت حياته سجناً كبيراً بين

مَعْلَمَين، تبدأ من المنزل وتنتهي في أعتابِ مركز الغسيل الكلوي.. وهكذا تضيقُ الطرق، وتنزوي فرص الحياة، وتتسعُ ساح الرحيل.. وتبقى حياة **القبو** حاضرة في قصة عصام، ففراش الجسدِ الممتد كان رقيقاً فيما مضى، وباتَ اليوم ثخيناً ناصعَ البياض، لحقيقةٍ واحدة .

وتناءت بيننا الديار، وتراخى العهد، وطالت بيننا المسافات، وأمسى عصامُ ذكرى حزينةٍ تلمُّ بي من حينٍ إلى حين.

ذابت ألوان اليوم تدريجياً حتى اكتسى بالسواد، وأصبحت قمم الجبال البعيدة صوراً مبهمة لا يُرى فيها إلا هالات الظلام.. في ذات المدينة التي شهدت عذاباتِ الطفولة ذات نهار، يُكملُ القدَرُ فصول قصةٍ لم تُطوى..

فجأةً توقفتُ عندما سمعتُ أحدهم ينادي باسمي، شعرتُ بالضبابِ ينكشفُ في ذاكرتي عن ذلك المنسي في متنِ الحياة، فإذا بي أرتدُّ راجعاً إلى حيث لقيته في المرةِ الأخيرة وهو يقول لي: "إنني ميت، لم يعد لي في حياة الناس نصيب".

جاءني صوته من أغوار هاتيك السنين حزيناً ممزقاً، لمحتُ عليه ظلال الألم الدفين، والأمل الخابي، وأثار المعركة القاسية، لهول الصدمة أنكرته ابتداءً، وأوجستُ في نفسي خيفة، غابتِ الابتسامة، وذوت الملامح، وغارت العينين، ورأيتُ شيئاً من بقايا دماءِ الأملِ المغدورِ مرتسماً في ملامحه المختلطة.. وقد جفَّ ماء الحياة فيه، وذبلت نضرة الشباب، وعاجلته كهولة مبكرة، وهو في

الثلاثين من عمره. ولم يبقَ له من علامات الحياة إلا عينان تُحدقان في غير شيء، وترسلانِ نظراتٍ تائهة خرساء، وبدا عليه أنَّ شيئاً فيه قد مات.

في العاصمة التي شهدت مأساته الأولى، التقيته ينتظرُ دوره لإجراءِ عمليةٍ جراحيةٍ خطيرة، الأملُ في نجاحها ضعيف حدَّ الحياة التي يحياها..

كان يحدثني قبل الدخولِ الأخير عن طعنةٍ تلقاها في ظهره جعلته يترنح.. "فعندما اشتدَّت بي الآلام، واستبدَّ بي المرضُ، وطفت للسطحِ أثاره، لم أجد من يقفُ لجانبي، بتُّ وحيداً أصارعُ المرض، أسبحُ وحيداً بلا معين، أسيرُ بلا رفيق، أطيرُ بلا جناح، أصرخُ بلا صوت، تنكَّر لي كل شيء.. ثم أجهشَ بالبكاء وهو يرمي في وجهي قنبلة ثقيلة أفقدت توازني واختل ميزان فكري عند سماعها، أُوصِدتْ في وجهي الأبواب، - تنهَّدَ وقد ندت من عينيه دمعة مسحها بيديه- تركتني زوجتي وحيداً، تخلت عني في لحظةِ ضعفٍ أصابني، كنتُ أراها كل شيء، وفي لحظةٍ فارقة لم تعد شيئاً، بقيت وحدي أحدقُ واجماً في فلولِ الظلام، وأصغي في وجوم حزين إلى عويل الريح، وعدتُ لفراشي الرقيق في **قبو الأحزان** ملتصقاً به، أحتمي به من نظراتِ الإشفاق التي تقتلني مراراً، وما زالَ نزيفُ الدم ينبعثُ جراء طعنةٍ غادرةٍ في ظهري من حبيبٍ مفارق، رَمَت بي وحيداً أصارعُ الموت.. كلما أردتُ علواً وتعالياً عن الآلام أثقلتني الذكريات، وكلما أردتُ سمواً سفلت بي غدرة المحب في جُبِّ الآلام، وكلما وجدتُ طريقاً إلى السماء غَلَّقته في وجهيَ الأقدار، وما أراه الا يفتح لي الباب قريباً..

هي والله من كسرت جناحي، وأبقتني سجيناً للألم، يوم تخلت عني بتهمة المرض الذي **اغتال ربيعي**". قال لي ذلك وهو يستعدُّ لدخولِ غرفة العمليات في مستشفى العاصمة، ولَّى وتركني من بعده مسهداً لا أنام.

وأصبحَ الصبحُ فإذا بأيدي الزمان قد انتزعت روحَ الربيع، وانتشـرَ حيثُ كنتُ أجلسُ صوت منادٍ يصرخُ بأعلى صوته: **ماتَ عصام، ماتَ عصام** .

وهكذا، أطبقَ على رقعةِ المدائنِ ضبابٌ كثيفٌ، فانطفأت وذبلت، ولم تعد برّاقة كما كانتْ! ووطئ عليها ظلامٌ طويلٌ يَسْحَقُ الأحلامَ وينسفُهَا نسفًا.. وكانتْ قصةُ الإنقاذِ طويلةً متماديةً، تقطرُ دمًا وغدرًا وخيانةً وانتقامًا!

يقظةُ ضَمير

كانَ وحيداً إلا من أحلامٍ مضطربةٍ سوداءَ كَليْلةٍ بِيعَ فيها الضميرُ وذوتْ فيها الرجولةُ والعنفوان.. تمتمَ في أسى.. كيفَ ارتضيتُ لنفسي هذا المصير .. ؟!

أغلقَ عينيه وذهبَ يتذكَّرُ تلك الليلة التي تطايرَ فيها شَررُ الموت - من قبل صُـنَّاعه - على المدينة، في لحظةٍ ما تحولتِ المدينةُ الحاضنة لوقارِ الجبل وهدوءِ البحرِ إلى جحيم.. لم تعد تسمعُ إلا الأنين.. وأصواتُ الخائفين، وتنهدات المستجيرين من هولِ ما يحدثُ فيها.. في تلكَ الليلةِ الموحشة سمعتُ هتافاتِ أقراني تضجُّ في نواحي المدينة:

" حيَّ على الفلاح ".. رحمَ الله من ماتَ دونَ عِرْضِه وأرضه قبلَ أن تُدنَّس .

أمَّا أنا فضننتُ بنفسي عن الحياةِ كريماً، وذهبتُ أبحثُ عن مكانٍ يحفظُ لي حياة ..!

لم تتوقف سحائبُ الموتِ، حممها تصلُ لأماكننا التي نختبئُ فيها، لم يعد منَ الموتِ مفرٌّ قال لي الضميرُ يستحثني النهوض، لكنني صَمَمْتُ أذني عن سماعِ أي صوتٍ يقربني منَ الموت..

استبدَّ بيَ الهلع، ولم أعد أحتملُ كل تلك المناظر.. جثثٌ مُلقاة لشبابٍ في زهرة العمر.. أصواتٌ مختلطة كأنها أجراسٌ مبحوحة في سوقِ الرقيق.. الدمارُ في كلِّ مكان، المدينة خاوية إلا من الموتِ الذي ارتسمَ فيها فغشاها بسواده الكالح .. في مرةٍ ما رمقتُهم بعيني والخوفُ يتملكني، سألتُ نفسي يومها ماذا يريدون؟

ولماذا يهدمونَ مدينتنا وأحلامنا وآمالنا؟

صوتٌ شقَّ طريقه نحونا، جئنا لإنقاذكم من أنفسكم، نحنُ منقذونَ ولسنا غُزاة !..

بتُّ ليلتي تلكَ في حيرةٍ من أمرِ هؤلاء القادمين من مغاراتِ الظلام، يزعمونَ أنهم حَملةً للنور، أيُّ سخفٍ نعيشه، وأيُّ زمنٍ رمى بيَ القدرُ بين يديه .. بيوتنا تُدمَّر، وأرواحنا تُزهق، وأرضنا صارت لوحة مخضبة بالدماء.. نحنُ من نُقتل، ونحنُ من سُنحرَّرُ من أنفسنا، ياله من سُخف ..!

رغم كل الدلائل التي اتضحت لي عن عدالةِ قضيتنا وقدسية الدفاعِ عنها، إلا أنني تواريتُ خلفَ جدرانِ الخوفِ أحتمي من الموتِ الذي يتخطفُنا تاركاً خلفه الجبل والبحر يندبانِ نجوماً محاها الموت .

في إحدى الليالي المظلمة حزمتُ حقيبتي وخرجتُ متسللاً للفرار إلى مكانٍ آمنٍ أعتصمُ به من طوفانِ الحرب.. كانت ذكرى سيئة ما حدثَ لي وأنا في الطريق إلى مدينة أمي التي خُلقت طينتها من العِزْ، كنتُ أرجوا أن تُضْفي من صفاتها في قلبي المرتجف من صقيعِ الرصاص ودوي المدافع.. حينها تمرَّغْتُ بالذل، وخلعتُ كرامتي وأنا أخطوا بينَ أيديهم لأخرجَ من عتباتهم إلى حيثُ ارتضيتُ لنفسي!

أفتحُ هاتفي وأشاهدُ دمار مدينتي على يدي من جاءوا لإنقاذها، وأنا هنا في مكانٍ آمن، مؤثراً حياتي على حياة وطنٍ لفَّني بردائه، ومُؤْثِراً رغباتي على الذودِ عنِ الأرض والجبلِ والبحر والتراب المُذهَّب الذي اختلطَ بدماءِ الشهداء من

أبناءِ مدينتنا.. رضيتُ أن أكونَ مارَّاً فوق جسرٍ من الذل للنفاذِ من حمأة الشقاء الذي تتركه الحروب عادة.. دونَ علمي بشقاءِ فعلتي !

فتحَ عينيه على صوتِ المدافع تهزُّ المدينة التي فرَّ إليها محتمياً من صُنّاعِ الموت .. سمعَ أصواتاً تنادي :

مدينتنا من العِزِّ خُلقت، ويأبى اللّهُ أن تُهان ..

هنا تُصنع الحياة، لا مكانَ للموتِ بيننا ..

تركَ الجبلَ الذي اعتصمَ به من الطوفان، ولحقَ بالسفينةِ ، استيقظَ الضميرُ بعد أيامٍ طويلةٍ من العذابِ والعتاب.. صاحَ بمن حوله :

" اركبوا معنا ولا تكونوا من الخائفين " ..

ما قيمةُ الحياة في أرضٍ وهبتنا الحياة فبذلناها للموت ..

ما قيمةُ العيش ونحنُ نرزحُ تحتَ أقدامِ الغلمانِ الحمقى ..

لن تنتصرَ الكهوفُ على الجبالِ والقلاع، سننتصر، وإنا لمنصورون !

بعد أيامٍ من انتصارِ العلمِ والحريةِ **على الجهل والسُلالية**، وتفوّقُ الجبال والقلاعِ على الكهوفِ المظلمة الغارقة في متاهاتِ التاريخ.. واستبسال شباب الوطنِ على المردة المتحالفين ، رأوه ساجداً لله شكراً، ومن خلفه تبدوا المدينةُ في شموخٍ ترفلُ بعزها الموهوب، لسان حالها :

مدينةُ من العِزِّ خُلقت، يأبى الله أن تَهون !

يلومُ الناس ظروفهم على ما هم فيه من حال.. ولكني لا أؤمن بالظروف، فالناجحونَ في هذه الدنيا أناس بحثوا عن الظروف التي يريدونها فإذا لم يجدوها وضعوها بأنفسهم.

برنارد شو

على أبواب برلين

عندما تتبدَّى لي صورُ اللقاءات، تلفحني حرارةُ الذكريات... أريدُ أن أنسى ولكن، أينَ بائعُ النسيان؟! حدثَ نفسه مراراً .

كانت ليلةً هادئةً من ليالِ الشتاء.. خلا الدربُ، وخفتتِ الأصوات، وسادَ الظلام، والبحر في سكونٍ وتبتل، والأعين الساهدة تنتظر عودةَ البعيد، وثمة رياح لطيفة تدفع بهوائها شيئاً فشيئاً فتتحركُ الأشجار متراقصة، وتتسابقُ حبات الرمل فيما بينها في منظرٍ بهي وجمالٍ قشيب .

في هذه الأثناء بين عَالَمَين، جمعَ بينهما قدسية الشوق واللهفة، كان "أكرم" واقفاً أمام بوابة برلين – شامخاً برأسه يحمل شهادة الدكتوراه – يتذكَّرُ بلدته "اليتيمة" التي قضى فيها عظيم الذكريات، تدافعت عليه المشاهد، واللحظات، والأنفاس، والحياة، تذكَّرَ مسجداً عتيقاً ارتمى في جنباته منكسـراً، سمعَ الأمواج التي كانت تبعثُ فيه شيئاً من أمل، وتزيحُ صخور اليأس التي أغلقت ثقوب الحياة في لحظةٍ ما. يتذكَّر شيئاً من روحه خلَّفه في المدينة التي رحلَ عنها، زوجة أمضَّها الرحيل، وطفل يشتهي أباه.

الدموع تذرفُ من عينيه، ويتمتمُ بهمسٍ ما هي إلا لحظاتٍ وأغادر إليكم، اعتصمُ بكم من طوفانِ الفراق.

تناولَ حقيبته، وارتدى معطفه، ثم ألقى نظرة أخيرة على مدينة "برلين" الساحرة المجنونة، التي أصبحت تعيشُ فيه، ففيها نال ما يصبوا إليه من طموحٍ

وآمال.. ومن شطآن بحرها نهل من علومها ومعارفها، وتحت سمائها اكتوى بلهيبِ الغربة، ولفحة الشوق المُحرق.

ألقى نظرته الأخيرة على المدينةِ التي احتضنته لسنواتٍ عديدة، وهي تزهوا بجمالها وأضوائها، وفتنتها، وتناقضها، ودهشتها، أشاح بوجهه وحاولَ أن يُسقِطَ الذكرى في هوةِ الرحيلِ اللانهائي.

مرحباً بكم في بلد العروبة والسلام، أنتم في مدينة آزال، في جبين التاريخ، في مهد الحضارة، ومعجزة العمران، تمتم في نفسه صنعاء.. صنعاء، ونظر إلى مآذنها الشاهقة بصنعٍ فريد، وهي تعانقُ السماء، أشجارها تهبُ النورَ للسائرينَ بلا خرائط، التائهينَ في غورها، المتخمين بالعجزِ واللاشعور. إنها الجمالُ العتيق، ومأوى الذكريات المزدحمة، إنها قاموسُ الحياة الممتلئ بالحب، والجمال، والمعاناة، والغربة، والصعود، والتهميش، والأسوار والجبال.. وصقيعُ الليالي، وإشراق الحياة، وبصيصُ الضياءِ للباحثين عن النور، إنها الأسطورة المقدَّسة لإنسانِ السُهول والهضاب، والرمال المحرقة، والأنفاس المنسية، إنها تاريخ الأيام الخوالي المتجددة .

أخذ قسطاً من الراحة، ليجدَ نفسه مرةً أخرى على متنِ الطائرة، ليذهبَ حيثُ هناك.. حيثُ تقبعُ الروح، ويخفقُ القلب. مرتع الصبى، وروعة الماضي الجميل.. منبعُ الطيبة والألفة والكرم.. مدينة السلام المتجذِّر في الأرضِ والإنسان، بنيانُ العلم الشامخ في وجه تيار النسيان المتدفق بلا هوادة، طينةُ الخليقة الأولى للإنسانِ البريء، المُحب حدَّ السذاجة، والصابر حدَّ البلادة،

والمؤمن حدَّ الاستسلام، مدينةُ العطاء بلا ثمن، عروسٌ بلا أنيس، نسجَ الزمانُ عليها ستار النسيان. وما زالت تبتسم.

دقائق مرت سريعة كبرق خاطف، ليهبطَ مرتمياً في أحضان مدينته الرؤوم، ففي أحضانها تغيبُ وتتلاشى كل المتاعبِ والآلام.

نظر إلى قوس المدينة مكتوباً بين جبينه: "**مرحباً بكم في مدينة الحديدة**"، استقلَّ سيارة وعيناه تنظرُ هنا وهناك.. يتأملُ الحجر والبشر، وبقايا الحياة هناك، كل شيء في المدينة يحنُّ إليه منذُ تركها وهي كامرأةٍ ثكلى تبكي زوجها، وها هو يعود، ولا زالت خيمة العزاء منصوبة تبكي الراحلين، تمنى لو يهبُ لعينيها التائهتين بريقاً ينفضُ عنها غبار الأيام، يزمُّ شفتيها الذابلتين بقبلةٍ تَهَبُ لها النضرة والطراوة، يمسح على وجهها الشائخ، ليعيد إليها النور والإشراق والجمال المُستتر.

تجاوز شبح المدينة ليقفَ أمامَ منزله، لم يتمالك نفسه، تسارعت دقَّاتُ الذكرى في قلبه الضعيف، فأجهشَ بالبكاءِ فرحاً وطرباً واشتياقاً.

نظر "عبد الكريم" من أعلى شرفة المنزل، وصاح بأعلى صوته بابا بابا.. وهرول مسرعاً ليرتمي في أحضانِ والده المُنتظَر، والذي ما عرفَ هيئته إلا من خلال الصورِ العابرة للقارات .

قبلات تنهمرُ على خدَّي طفله المتوردين، ونشيجٌ ودموع لا يعي معناهما إلا من ذاق حرارة الغربة والغياب.

خطى خطوات ثقيلة، ليلتقي نسخة الروح، وتوأمَ الفؤاد؛ فتاة أحلامه التي تركها بلا فارس برهةً من الزمن، تُكابدُ نَيْرَ الغربةِ والرحيل، وتقفُ بصمتٍ في مرافئ الانتظار، لاحتضانِ القادمِ من رحمِ هاتيكَ المدنِ البعيدة.

التقى الاثنان من بعيد، ووقفا قليلاً، كُلٌّ ينظر في عينِ الآخر، توقَّفَ الزمن يرقبُ من بعيد، لحظات من الصمت العذْب خيَّم على المكان.. ليجري بعدها الاثنان ويرتمي كل واحدٍ منهما في أحضانِ الآخر، في منظرٍ تشيحُ الدنيا بوجهها غبطة وخجلاً من رؤيته.

وقبيل أن يلتقيا؛ لتبدأ قصةً من أروع قصصِ العناقِ والحبِ والاشتياق.. دوَّت في السماء أصواتٌ قوية لأعيرةٍ نارية، استيقظتُ على إثرها من النوم فزعاً، أنظر من شرفة المنزل ..

ماذا حدث ؟! ما الخبر ؟!

سمعتُ صوتاً من بعيد يقول لي:

عاد أكرم من برلين .

تحاشيتُ كل الطرق المؤدية إليكِ، أغلقتُ باب الطريق بيننا بحجرٍ من الغباء، كنتُ حينها أظنُّ أنني أشيدُّ حصن الوقاية، وغفلتُ أنني أرصُّ حجر آلامي على مرِّ الأيام، تعالَي أيتها الراحلة القريبة أكثرَ من الروح، لماذا تُمعنينَ في الغياب؟!

إهـــداء

في اللحظةِ الفارقة بين حياتين، سطرتُ قصتي.. دبجتها بحروفِ السهاد .

القلبُ مضخةٌ للدمِ وحسب، مفهومٌ نقشه في وجداني إزميلُ قيمٍ و تقاليدَ حددت سلوكَ أمثالي -كشابٍ ملتزم- وطريقة تفكيره بل و نظرته للحياة، الحياةُ التي لم تكن سوى وسيلةً لـــ "الموت" ، قيمٌ و تقاليد صنعت مني كائناً خشبياً يسيرُ على قدمين، يقرُّ لله خَلقَه كل شيء إلا العاطفة، فالحبُّ مفردة لم أكن أسمعُ بها إلا في قصصِ الغاوين في العظاتِ التي كانت تطرقُ أسماعنا، أمورٌ مبتذلة لا تليقُ بهذا الكائن الذي كنْتُه، وكذبةٌ مهولة يستعذبها الفارغونَ لسدِّ شيء من العجزِ والفشل.. ونبتة مزعجة يجبُ أن تُـستأصلَ قبل أن تستفحل !!

في العاشرة مساءً اهتزَّ هاتفي..

«أنتَ شابٌ نادر، سلامٌ لروحكَ الطيبة!».

رسالةٌ من مجهول، لم أكترث بها أو بصاحبها، تحية ربما وردت من جوال صديق غير مدون في سجلِ هاتفي.. هكذا ظننت.

في العاشرة من مساءِ اليوم الثاني تأتيني رسالة من ذاتِ الرقم ومن المجهول عينه: كلَّما فكَّرتُ أن أتركَ الكتابة لك، أناملي تلهثُ للكتابة دون شعورٍ مني..

وأردف:

كلّمـــا حاولتُ نبذكَ من دمي   ركضـــت إليَّ يدي تشدُّ وثاقي

من يكونُ ذلك المرسل المجهول الذي لم يستطع كبح جماح قلمه ليكتبَ لي ؟! بدأ طوفان الأسئلة يغمرني، لم يتراجع إلا بهمسٍ نهضَ من أعماقي: "لا تذهب بعيداً، فلربما كانتِ الرسالة قد أخطأت وجهتها".

الرسائل توالت تباعاً على ذاتِ النسقِ الأنيق من ذاتِ «المجهول» وفي التوقيت ذاته من كلِ مساء..

في الجامعة، ينتابني شعورٌ غريب.. ثمة من يترصدني، يتحركُ خلفي، شبحٌ يحصي أنفاسي، يعدُّ خطاي.. أدري أنَّ ذلك من نسْجِ أوهامي التي خلفتها تلكَ الرسائل، أحاولُ طرد الهاجس من رأسي و أمنعُ نفسي من كثرةِ الالتفاتِ حتى لا أبدو مضطرباً يبعثُ على الضحك.

في آخرِ المدرجاتِ الخلفية لقاعةٍ مهجورة تستخدمها إدارة الجامعة كقاعةٍ احتياطية، وقلَّ ما يحدثُ ذلك، حيث أعتدتُ الجلوس - في حرائي - بعيداً عن الصخبِ في خلوةٍ مع أفكاري، دنا أحدهم مني هامساً: حسام هناك من يسأل عنك وينتظركَ خارج القاعة .

ما إن جمعتُ شتاتي الذي بعثره، حتى ذابَ طيفه، لم يمنحني فرصةً لأسأله، ولم أتمكَّن من الإلمامِ بملامحه، عصفتْ بي حيرةٌ شديدة.. من ذا تراه ينتظرني؟! وكيف عرفَ أنني أجلس هنا؟

شعرتُ كأنني أحتاجُ ردحاً من الزمنِ لقطعِ الـــمسافة من مكاني في آخرِ القاعة إلى بابها. لم أجد من ينتظرني خارجَ القاعة، أو حتى في الأروقةِ المحيطةِ بها، أفقتُ من غفوةِ الدهشة على وقْعِ رسالةٍ من ذاتِ المجهول دلفت صندوق

الوارد بهاتفي: «سلامٌ عليك، حاولتُ لكن لم أقوَ على لقائكَ رغمَ شدة حاجتي لذلك.. فاعذرني». تحولت عاصفة الحيرة الى طوفانٍ كانَ كفيلاً ببعثرة ما تبقَّى مني، أغلقتُ هاتفي وغرقتُ في أوهامي وحيرتي، قابعٌ في مكاني جسداً لا روحَ فيه، انصبَّ تفكيري في حلِّ هذا اللغز الذي أعيشه منذ أيام.

عند عودتي إلى المنزل رنَّ هاتفي، إنه ذات الرقم الذي يُمطرني بحروفٍ طالما شغلت بالي، بصوتٍ هادئ، قلت: نعم، لكنَّ أحداً لم يجب، ألو ألو، لا أحدَ يجيب، أغلقتُ الهاتف، لأهربَ في قيلولةٍ أستريحُ فيها من ضجيجِ «المجهول» الذي باتَ يؤرقني!

عُدتُ من صلاةِ العشاءِ إلى مكتبتي، فرغتُ من رصِّ مجموعة كتبٍ أهديت لي وترتيبها.. وبينما كنتُ أمتطي صهوة القلم أجول به عالم الفِكَر، قطعَ جولتي تلك دويُّ رنينِ الهاتف، فتحتُ عيني جيداً، إنه ذاتُ الرقم..

- نعم
- السلام عليكم .. جاءني الردُّ في صوتٍ أنثوي رخيم..
- وعليكم السلام .. رددتُ أنا و عقدت الحيرة وأخواتها لساني .
- كيف حالك؟ أحببتُ أن أسمعَ صوتك فأنتَ دائماً صموت، و على فكرة أنتَ شابٌ رائع ..! و أغلقتِ السماعة .

أف..!، لم تترك لي فرصةً لأسألها: من تكون؟ وماذا تريد!؟.

بعدَ يومينِ عاودت الاتصال بي، تكرَّرَ ذلكَ منها على مدارِ الأيام التالية، كانَ الكلامُ يقتصرُ على السؤالِ حولَ أحوالي و الجامعة.. استمرَّ هذا الأمرُ بشكلٍ

شبه يومي في كلِّ مرة، وتحتَ وطأة الشعورِ بالإثمِ الذي كانَ يكبُرُ في نفسي معَ الأيام، كنتُ أعقدُ العزمَ على أن أسألها من تكون؟ وما هو المطلوبُ مني؟ وأطلب منها ألا تعاود الاتصال بي، لكنها لم تكن تمنحني فرصةً لذلك، أو ربما أنني ولفرطِ استمتاعي لم أُرِد مقاطعة ذلك الصوت ذي البُحة الدافئةِ المحببةِ للنفس.

نعم.. كانَ صوتها عذباً يتدفقُ بسلاسةٍ وصفاءٍ كماءِ السلسبيل. لا لا لا، أظنُّ أنه اللاوعي الكامن في أعماقِ النفس، ألم يقل أحدهم: إنَّ اللاوعي: هو النفسُ الأمارة، إذن بالتأكيد هو. تباً له من «لاوعي» سيء!، يزينُ لي اقتراف تلكَ المعصية، وكأنه يقول لي: «لا غضاضة ولا داع للفظاظة، ما دامَ أنها فتاة لا يُشتم من حديثها سوى الأدب، و هل هي أذنبت حين وجدت نفسها معجبة بشابٍ، حدَّ وصفها له دائماً ، جمعَ بين الحُسنين الخَلق و الخُلق»!.

لا أنكرُ أنَّ رسائلها كانت تنتشلني من قاعِ بئرِ الحرمان، وكنتُ أقرأ حروفها كزخاتِ مطرٍ أحيت أرضاً قاحلة ملَّتْ من عناقِ الجفاف، تغسلني كلماتها حين تهطلُ بماءِ الحياة، تبدِّدُ شيئاً من عزلةٍ كنتُ أعيشها، رسائلها غيثٌ انهمر على فؤادي فأحاله واحةً مشرقة.. لكن.. سرعانَ ما يزول عني ذلك الأثر، ليعود قلبي إلى سيرته الأولى.. هوةً سحيقة مليئةٍ بالظلام، ممتلئاً بالعجز عن إسكات إحساسي بالظلم تجاه فتاةٍ لم تتمكن من الصمت عن البوح بأمرٍ لا طاقة لها به، فتظلمُ الدنيا في وجهي مرةً أخرى.

أُغلقُ الهاتف وأظلُّ في صراعٍ بينَ مبادئي، ونوازع نفسي. قررتُ أن لا أجيبَ على أي اتصالٍ تحمله رياحها، كان يرنُّ هاتفي، فتتسارعُ دقاتُ القلب، وتثبُ للردِّ أصابعي، لكنني أصررتُ بصرامةٍ أن أصومَ عن الحديثِ معها، لأنني أخشى أن أكونَ عبداً لصوتِ امرأةٍ يأتيني كشلال حبٍ يرويني حدَّ الشبع، فتدوي بين ضلوعي أجراسُ الحياة تارة، ويقذف بي إلى مفازات الهلاكِ تاراتٍ أخرى.

في لحظةٍ ما، غلبني شعورٌ بالذنب، وإحساسٌ بالخطيئة، فكتبتُ لها: اعذريني: "لا أستطيعُ أن أعيشَ بـقلبٍ، نصفه لله، ونصفه لامرأة !!" كانت هذه الرسالة طاحونةُ الأنينِ الدائم لإقناعها بأن تصمتَ عن حبها، أن تدفنه، أن تهيلَ عليه التراب، أن تقفَ صامدةً بثباتٍ في وجه قلبها المجنون بحبِّ شابٍ مثلي لا يعرفُ عن الحبِ شيئاً سوى تهمة العيبِ الممسكة بتلابيبه، وذنب مشين يستوجبُ التوبة والاغتسال سبعاً إحداهنَّ بترابِ الوهمِ الذي سربلَ روحي!.

«لماذا يُعاقبُ المحبُّ إذا ابتلي يوماً بسلطانِ الحب؟! في عالمِ الحجارةِ فقط يكونُ الحبُ شيئاً من الجُرم، أو هو الجُرم ذاته، يصبحُ الحرمانُ زادنا، والآلامُ طريقنا إذا بُحنا بما لا طاقة لنا به، ثمة فصلٌ ظالمٌ بين حبِّ الله وحبِ امرأةٍ طاهرة ذنبها أنها أحبت دونَ شعور منها، الحبُ فضيلة لا جريمة».. رسالة وصلتني منها على هاتفي رداً على رسالتي.

كلما فكرتُ في وقْعِ رسالتي عليها، يعتريني الأرق، يجافيني السكون، فأنصرفُ لقراءة رسائلها التي احتفظتُ بها في هاتفي، أقرأها ألماً ألماً، كنتُ

أجدها تعاتبني بصمت، لا، بل تحاكمني على ما اقترفته بحقها، أمَّا الضميرُ فيعاقبني بسياطه الموجعة.. فيطويني النومُ في عالمه خائرَ القوى من هولِ حروفها
.

في الجامعة - وبعد انقطاع - رنَّ هاتفي مرةً، وأخرى، وثالثة... لكنني لم أجب. «كنتُ أود أن أراك، فقد قررتُ الرحيل، لا أستطيع مواصلة الدراسة في جامعةٍ تذكرني بكَ دوماً!» قالت لي في رسالتها التي صعقتني ودخلتُ على إثرها حالةً أشبه بغيبوبةٍ مؤقتة، أثقلَ الحزنُ كاهلي، تملّكَني شعورٌ بالأسف، بالألم، بالغباء، بالندم ، ورغبة في البكاء.

قُبيلَ المغربِ من ذلكَ اليوم الأسيف وصلتني رسالة: «أدْخُلُ الأنَ أبوابَ العاصمة، أدعوا الله لي أن أنساك».

قضيتُ ليلتي في بكاءٍ مستمر لا أدري لماذا البكاء!؟ كيف أبكي رحيلها وأنا من وأدتُ ذلكَ الطُهرَ في مهده.. أم هو شعورٌ بالخذلان، أم إحساسٌ بالضعفِ نتيجة حبها الذي لامسَ قلباً يكابرُ الحب ويسعى لإخراجه ليسَ كرهاً فيه، وإنما لشعورٍ سابقٍ أنَّ بقاءَه في القلبِ أمرٌ لا يليق!؟

كنتُ إذا جنَّ الليل وأرخى معطفه فوقَ رؤوسِ البشر يلوحُ طيفُها لي، فاضطربُ كعصفورٍ مبللٍ من بكاءِ السماء. مضت أيام وشهور وأنا في حالةِ عزاءٍ دائم، لكنَّ المأتمَ وحدَه ليسَ ينقذُ القلبَ المحاطَ بالنيران، ولا يُعيد الراحلين.

ذهبَ الذينَ أحبهم وبقيتُ مثلَ السيفِ فرداً

نعم.. ذهبوا وانسحبوا باكراً على رؤوس أقدامهم كي لا يزعجوا أحداً، آثروا الرحيل للفرارِ من ألمِ الجفاء، حدثتُ نفسي وأنا أعضُّ على شفتي السفلى حتى كدتُ أغرسُ أسناني وأنا أكابدُ الألم الذي خلَّفه رحيلها.

لا أدري كيف دارت رحى الأيام وهي حبلى بآلام النوى!؟ كنتُ قد تخرجتُ للتو من الجامعة، وكان والدي قرر أن ننتقل إلى العاصمةِ لطبيعة عمله الجديد.. على مشارفِ أبوابها تذكرتُ رسالتها: أدْخُلُ الأنَ أبوابَ العاصمة، أدعوا الله لي أن أنساك!.

في العاصمة زادني الفراغ و الغربة وحشة، أجترُّ أحزاني الدفينة، تارةً أغوصُ لأسبرَ أغوار نفسي، أبحثُ عن ذاتي في ثنايا الذات، وتارةً أخرى أطفو على سطحِ الواقع الجديد، أسيرُ وحيداً لا ألوي على شيء سوى تصفح وجوه المارة من حولي، أشتمُّ خطاها، أتحسَّسُها في كل مكان، ثمة أملٌ يراودني أنني سأجدها هنا، لعلَّ القدرَ يقذفُ بها في ساحلي من جديد.

مريضٌ بُعضالٍ يُمنّي نفسه العافية. ولم يكن يخفِّفُ من وطأةِ تلكَ الوحشة سوى القلم، طفقتُ أسكبُ حزني الدفين على الورق، بدأتُ رحلة البوح، لعلي ألامسُ شيئاً من سكونٍ غادرني دونَ أن يتركَ عنوانه.

وجدتني أسردُ حكاية من لم يكن يعلمُ أنَّ للشوقِ ظلاً، للرحيلِ ثمناً، حكاية غابرة كنتُ فيها الجاني والضحية، أخطها بزفراتٍ مكتومة اعتنى بها غبائي حتى تبرعمت، وغذاها الفشلُ حتى أزهرت، لكن هيهات على من أطفأ جذوة الحب

أن يُشعل أوارها من جديد، لكنني صمَّمتُ أن أحطمَ ذلك التابوت الخشبي، أتحررُ من شرنقته.

عند هبوطِ الليل يتراءى لي ظلها يعاتبني، رسائلها تقررني دروسَ الحب، صوتها يهدمُ ما تبقَّى من بنيانِ قلبي، أتخيله يناديني فألتفتُ فلا أرى إلا طنين الصمت وسرابٌ أحاطني منذ أن قَرَرَتِ الرحيل، أصرخُ في الأفقِ ممزقاً سكونَ ما حولي.. أينَ أنتِ؟! أبثكِ مصابي، علتي التي لا بُرأ لها سوى لقياكِ، صدقيني، لم أعد ذلك الفتى الذي جرَّ آلامه بحروفه، من أوصدَ الأبوابَ بأقفالِ الجفاء، من أهالَ الموتَ على بساتينِ الجمال، من أطفأ جذوة الحب ومحى تاريخه بممحاة الخوف العتيق، لستُ ذلك الفتى الخشبي، لا.. لم أعد كذلكَ صدقيني! إنني أحملُ في قلبي أملاً لا يعرفُ الانطفاء، لأنَّ جذوته من نوركِ الذي أشعلَ فتيلَ الحبِّ بصدقٍ حدَّ الرحيل.

ما كنتُ أتصورُ يوماً أنَّ سعادتي تتجسدُ في غائبٍ أتشوفُ لقياه، ما كنتُ أعي أنَّ الحبَّ أسمى عاطفة في الوجود، ما ظننتُ يوماً أن «الرحيل» سببٌ للتيه والضياع !. أقلبُ جريدة الصباح بحثاً عنكِ، فأجدني في قائمةِ التائهينَ الذينَ يبحثونَ عن أنفسهم الضائعة.

تحاشيتُ كل الطرق المؤدية إليك، أغلقتُ باب الطريق بيننا بحجرٍ من الغباء كنتُ حينها أظنُّ أنني أشيدُّ حصن الوقاية ، وغفلتُ أنني أرصُّ حجر آلامي على مرِّ الأيام ، تعالَي أيتها الراحلة القريبة أكثرَ من الروح، لماذا تُمعنينَ في الغياب؟!

أثناء عودتي إلى المنزل بعد يومٍ مُضْنٍ من البحثِ عنها، تهادى إلى سمعي صوتٌ شقّ طريقه للسماء " لم أرى للمتحابين إلا الزواج " وليس ثمة انفصامٌ بين التدين والحب !.

حُزمة من الأوراقِ بين يدي «شيٌء من الحب»، جهدُ الليالي والسهاد، حروفُ آلامي التي أعيشها، سيرة غبائي الذي كان، دموعُ النَّدمِ على ما فات، مشاعرُ متناقضة، وتنظيرٌ للحبِّ وانتصارٌ لقيمه، وتخلُّصٌ من هاجسٍ ظلَّ يؤرقني، وذكرياتٍ تطاردني، بوحٌ مكنون في نفسي قرَّرَ التمرد.. وقد كان له ذلك في ثنايا هذا «الشيء».

كنتُ حينها قد انتهيتُ من رحلة البوح بــ «شيءٍ من الحب». لم أكن موقناً تماماً أن صديقي سَيَفي لي بوعده، وأنّ «بوحي» سيبصرُ النور، كنتُ الوحيد القادر أن يتحسّسَ عبيرها في ثنايا مولودي الورقي البكر. ها هي صورتي تتدلَّى من إحدى زوايا الملحق الأدبي للصحيفة، أرفقها المحررُ مع عرضه الموجز للكتاب في خبر الدعوة إلى حفل التوقيع. أدهشتني كلمة ممهورة بقلمِ أحد الكُتَّاب في الصحيفة: «إنَّ صفحات الحب هي الأكثر اشراقاً في كتابِ الذكريات». خُيِّلَ إليَّ أن ذلكَ الكاتب الحاذق تعمَّدَ نكزي بتلكَ العبارةِ التي آلمتني.

أمامَ جمعٍ من المثقفين الحضور في القاعةِ الأنيقةِ التي احتضنت حفلَ التوقيع، كنتُ أتحدثُ بحروفٍ مرتعشة عن اعتمالاتِ الوجْد التي تشكلت بداخلي لتصبحَ لاحقاً: «شيءٌ من الحب»!

اجتهدتُ في مداراةِ قسماتِ الخجل التي كادت تفضحني، فأنا أتحدثُ هنا عن الحب، هو ذاته ذلكَ المعتقد الذي كفرتُ به ذاتَ منعطفٍ في حياتي، ومزقته في إحدى الليالي برسالةٍ في أحرف معدودة.

«عندما جئتُ إلى العاصمةِ ممتطياً حيرتي.. كانَ الوجودُ لغزاً، والسماءُ طائراً بلا جناح، والأرضُ قيداً لحرٍ يبحثُ عن حقيقةٍ تتمثلُ فيكِ، قرأتُ وجهكِ ذاتَ صباحٍ على سفحِ جبل منحوتٌ بهالة منَ النور، واكتفيتُ بذلك، لكنني لم أكن أعرفُ أنني سألقاكِ بعدَ كل هذا الغياب الطويل، غيابٌ غارقٌ في ضبابية الأيام والشهور والسنين، ضائعٌ في متاهاتِ المستحيل، ومسربلٌ بكثيرٍ من الغموض، وأنا الذي لم أركِ قط في دروب حياتي وأزقةِ دنياي، لم أكن أنتظرُ لحظةً كهذه بعد أن تملّكَ اليأسُ كل ذرةٍ في كياني، لكن قَدَرُ اللقاء طغى على عَذَابَاتِ الغياب المرير. لقد تخطيتُ كل ما اعترضني من جبلٍ أو صخور، غيرَ أن الذي يصدمُ جبيني هذه المرة هو حجرُ الندم».

تمتمتُ بهذه الكلمات وهي تمدُّ يديها نحوي لتوقيعِ نسختها من كتابي الذي رسمتُها فيه، أمسكتُ بالقلم ويدي ترتجفُ من هولِ المصادفة التي طالما انتظرتها وأنا أذوبُ بحثاً عنها.. ماذا أكتبُ لها؟ سألتُ نفسي، فكتبتُ: «إننا نخطُ إهداءً للغرباءِ فقط.. أما الذينَ نحبهم فمكانهم ليسَ في الصفحةِ البيضاءِ الأولى، بل في صفحاتِ الكتاب!».

... فارتفاعُ الروح الحالمة: تورثني كآبة لا تغسلها أمطارُ السماء!

حنان

صُلِّيَ على الطفلةِ حنان، ودُفِنَ جسدها النحيل، وأهيلَ عليه التراب، وتقبَّلَ والدها المهدودُ فيها العزاء، ثمَّ مضى يمخرُ الآلامَ من جديد..

في إحدى الليالي المُظلمة بعد أن نالتِ المدينةُ قسطها من حجارةِ السماءِ المزوجة بالبارود، و تهيأتْ للموت.. عادَ والد حنان يحملُ أسماله البالية، وقلبه المكسور، وجيوبه الخاوية، وضعفه الذي لا حدَّ له.. في المنزلِ كانت حنان ابنة الاثني عشر ألماً تتلوَّى في فراشها، تعصرها الحُمى، وتلسعها حرارة الألم.. لم يجد والدها ما يهدأُ به ألمها، مضتِ الليلة سعياً لـإخماد نار الحمى الملتهب، مع تمتماتٍ تدعوا بها والدتها في أحدِ أركانِ المنزل المظلم.

بَرَزَ الفجرُ بعد انزياحِ الليل الثقيل، والطفولة تأنُّ في جسدِ حنان.. خرجَ والدها طلباً للعمل ككل يوم يخرجُ فيه، عادَ بعدَ الظهيرةِ وبينَ يديه مبلغ زهيد لا يكادُ يُذكر.. هل تسعفني به أم تشتري الغداء؟! قالتِ الطفلة لأبيها سائلة.

حُملت حنان لأقربِ مركزٍ صحي -إن صحت تسميته بذلك- لتلقي العلاج، كان حالها وحالُ ابيها يشبه المركز المهترئ حدَّ التطابق .

حنان لم تشعر بشيءٍ من الحنان في تلك الغرفة التي كانت تحتضنُ جسدها الصغير، بل لا تعرفُ من الحنان إلا اسمها الذي سُميت به في زمنٍ قاسٍ حدَّ الحرارة التي تُنْهِكُ جسدها الممتد في سريرٍ حديدي متهالك؛ كتهالكِ الزمنِ الرديء الذي عاشت فيه .

اشتدَّت بها الحمى وارتفعت حرارتها، وذوت ملامحها، واختفت نظارتها، وبرَزَ شَبَحُ الموتِ متربعاً في ثنايا وجهها الخافت.. لم يعد يلوحُ على شفتيها إلا بقايا ابتسامةٍ ماتت منذُ زمن.. لم تعد تُرى سوى طفلةٍ بلا ملامح.. وبقايا جسدٍ متهالك يوزع ابتسامته الميتة على الأحياء الموتى الذين يحيطون بها، ويُبعدونَ الموت عنها - قليلاً - بدعائهم وتضرعهم وبكائهم ..

حنان المتلفعة بآلامها وعَجْزِ أبيها، هي ذاتها حنان الصغيرة التي اخترقَ الرصاصُ قلبها النابض دونَ معرفةِ الجاني..!

هي ذاتها حنان الصغيرة التي ماتت على أبوابِ "الحالمة" بسببِ الحصار والموت القابع هناك.. هي نفسها حنان الصغيرة التي تبكي أباها المُختطف، وأمها الثكلى، واخوتها المُغيبون..! هي هي الفتاة ذاتها حافية القدمين، من تجوبُ الأزقة بصحبة والدها بحثاً عن الحياة ..!

هي ذاتها حنان الصغيرة النازحة من أرضها وترابها ومنزلها وألعابها وذكرياتها وبقايا روحها.. حنان هي الطفولة الضائعة بين سماءِ البارود وجنون الأرض، هي الألم الدائم في جنباتِ الوطنِ المحترق، هي الحنانُ المفقود.

وتسلَّلَت أشعةُ القمرِ إلى حُجرة حنان، سقطت الأشعة على وجهها، كان وجه حنان أكثر شحوباً ونُبْلاً من وجه القمر.. وعرفَ القَمَرُ أنَّ حنان تموت..

بعد تلكَ الليلةِ المريرة، ماتتْ حنان؛ ضحية الحُمى والألم، والفَقْر والعجْزِ، والحصار والعَبَثِ والجنون، والحروبِ القذرة.

ماتتْ حنان .. وماتَ الحنان .. ورحلَ الحنينُ وظلَّ الألم .

إنَّ المرءَ حينَ يحسُّ بعنفوانِ الكرامة في لحظةٍ ما، يصعبُ عليه العيشُ بعدَهَا تحتَ أقدامِ السيدِ المُطاعِ؛ ولهذا تُنصبُ له الكمائنُ في طريقِ العبورِ..

اغتيال الربيع

تَمرُّ الأيامُ والسُنون،

يُطِلُّ الهِلالُ رضيعاً، يقفُ على قدميه، يشيخ، ثم يتلاشَى ليبزغَ مَرةً أخرى...

تَتبدَّلُ الأحوالُ والوجوه والوجعُ والزمنُ والمكان، والتاريخُ يُسَطِّر مِراراً مِراراً عَددَ تَبَدُّلِ الأحوالِ والوجوهِ والوجعِ والزمنِ والمكان ..

نَقفُ على حَافةِ الانهيار، ثم نصْحوا، ثم نحبوا، ثم نكْبوا، نتعثر، فنيأس فننـام.. لتوقظنا سياطُ القدَرْ .

العيونُ الصغيرةُ تُبْصرُ النور.. سُرعانَ ما تذْبُل .

العصافيرُ رحلتْ، تساقطتْ أوراقُ الشَجَر.. وتمَّ **اغتيالُ الربيعْ** ..!!

الأغصانُ هي وحدها من بقيتْ على قيدِ الحياة ..

الصحراءُ اتّسَعتْ فعمَّ الجَفافْ !!

القلوبُ لم تَعُدْ تَتّسعُ لشيء، لم يعدْ ثمة مكانْ

الشمسُ لا يُرى فيها إلا حرارتُها الملتهبة تلسَعُ جبينَ الحياة،

تائهون.. حَائرون.. خَائرون.. نحنُ ، ويُراد لنا البقاءْ ..

في الظَلامِ نعيشْ.. لا لشيءٍ.. إلا الخوف، ارتضتْ ذلك أجفاننا،

نعيبُ الـــنور، لأنه استثناءٌ في بقعةٍ يقودها ظلام،

نعيبُ الجمال، لأنَّ القبحَ خيَّمَ فوقنا بظلاله،

نعيبُ الحياة، لأنها والموتُ سيـان،

نعيبُ الموت، لأنه يَسْخَرُ من حياتنا المعتمة..

نعيبُ الـقدر، لأننا رهينةُ العجزْ .

تَمرُّ الأيامُ والسُنون..

يُـقطع فيها اللسان، يُكسَرُ القلم، تُـرمَّمُ فيها سدودُ اللاعودة، ما بينَ فَكَّيهِ يُبنى بحجارةِ الصمتْ، تُـحْفَرُ القبورُ لمنْ يَنشدُ بُقعةَ النور، يَتسَلَّطُ الغباء، وتُذْعِنُ لسطْوتهِ جماداتُ البشر .

يهتفُ قومٌ بــ«.........» فتهنالُ عليهمُ الرماح، تطفو الخيانة، يَبرزُ الدَجَلُ المُقدَّسْ، يُفَكُّ قيد الأوابد؛ لـــ ينتشرَ لونُ الدم القاني، وتبكي الحياةُ رجالها..!!

تُرفعُ الأيدي، تقبضُ الأكُف، يقفُ الجسدُ شامخاً، يرفعُ هامتَه للسَماء، فتغتاله رصاصةُ الظلــام .

بُحَّتِ الأصواتُ، دُبِّجَتِ القصائد، سادَ الحماس، تصبَّبَ العَرَقُ، هَرعتْ إلى المكانِ رياحُ الحياة، نشوةُ الحرية، حبلُ الأملِ المتهالك.. سادَ الصمتُ بُرهةً، انهمرتْ دموعُ الانتصار، انتشرَ لهيبُ الجنونِ بعدها، ليبتلعَ الأصواتَ والقصائدَ والحماس والحياة والحرية والأمل والدموع .

انسلتِ المدينةُ في كفنِ الصمت، وسادَ الصمتُ إلا من نباحِ الكلاب، وصياحُ ديكٍ خجولٍ في ربوةٍ نائية أحسَّ بالفجرِ قبلَ الأذان، يجاوبه صياحُ ديكٍ آخر، ثمَّ يخيمُ الصمت.

ولازالتِ الأيامُ تَمُرُّ، والسنينُ تنقضي.. عَلّنا نَنْتصرُ في يومٍ ما، ونعيدُ **للربيعِ كرامتَه** .

هنـــا روحٌ مِـــنْ حيـــاةِ الغريـــب: الشـــريدِ المتعـــالي الـــذي ســـطَّرَ قصـــة الاغتيـــالِ في مَتنِ الكتاب!

غريبٌ في أرضِ الوطن

منذُ نعومة أظفاره وهو يعيشُ تحتَ سماءٍ ليستْ بسقْفٍ أصيلٍ له بحكم من أرادوا ذلك. أخذَ يتقلَّبُ في مراحلِ حياته من الطفولةِ حتى بلغَ مبلغَ الشباب ليجدَ نفسه مع أسرته، وجيرانه، يستعدُّونَ للرحيلِ أو الترحيل من أرضٍ أُرضعَ فيها لبان الحياة فشعرَ بصعوبةِ الفطام وهم ينتزعوه منها.

تذكَّرَ يوم قرأ أنَّ الترحيل أو الرحيل عنوةً: هو اقتلاعُ شجرةٍ غضَّةٍ استنشقتْ عبير الحياة أول مرة في هذا الحقل، هو شيءٌ يشبه عقوبة الإعدام! هو أشبه ما يكون بنزع الروح من الجسد، كان حينها يشعرُ بنوعٍ من المبالغةِ لدى الكاتب لكنَّه عاشَ الوصفَ واقعاً وأيقن بحقيقته!

جلسَ يفكِّر في المكانِ الذي سيحطُّ فيه رحاله، أرضٌ يقال لها "الوطن" صار يقلِّبُ في البحثِ عنه ويسألُ كل من زاره عن أهله، وترابه، وسماءه، أخذَ الخريطة وقام بتحديد موطنه الذي سيأوي إليه بعد أن تمَّ قرار الرحيل، وجدَ موطنه في الخريطةِ ذو مكانٍ وحضور فدبَّ الأمل في قلبه، وازدادَ الشوقُ للقاءِ الوطن.

في فجْرِ يوم الرحيل رُتِّبت الحقائب، وتجهَّز الجميع، وظلَّ كريم يتأملُ المكان الذي عاش فيه قصةَ طفولته مستشعراً ألم الفراق والرحيل عن مكانٍ ضمَّ الانسانية إليه، لكنهم انتـُزعوا منه بذنبٍ مشينٍ يـُقال له "**الهوية**"! حافلةُ السفر موطنٌ للتأملِ والتفكُّر في العظمةِ والملكوت، والحياة والرحيل، والبقاء، والشوق، والتغيير، والرضا، والأمل القادمِ من المجهول.

في الوهلة الأولى من دخوله أرض الوطن انشرح صدره، وابتهجت أساريره، وشعرَ بدفءِ الوطن يسري في جسده، في المدينة اليتيمة المتخمة بالجمال- والموصوف أبناؤها بالرحمة والطيبة والحب- كانَ المستقرُّ وقدر العيش.

كانَ يلوحُ بكلتي يديه للمدينةِ ويترنَّم فرحاً: "خذيني بُرعماً في مُزهرياتِ الأمل، مشطاً تُسرحينَ به جدائل الريح الساكنة، قميصاً ترتدينه في حفلاتِ السمر.. إني أجوعُ إلى الحب ولا أحدَ يروي عطشي سوى عينيكِ يا وطني، و أنا فيها دمعة أنين، وشعاعُ أمل".

كان اللقاء الأول بنبيل الذي وجد فيه ملامح وطنه البريء، كان كثيراً ما يسأله عن الوطن، وعن العيش فيه، وحالُ الناس وعن أخبارِ الأماكن، وعن تاريخ المدينة، وعاداتها، وطقوسها، كان يحبُّ البحر والنظر إليه والتخاطب معه، كان يهيمُ في منظرِ الغروب والشمس تحتضرُ في آخر لحظاتها كحسناء تودع من أحبت، وكطفلٍ انتزع من أرضِ طفولته وهو ينظرُ إليها بعيني قلبه المتخم بالحزنِ والفراقِ والشعورِ بالألم .

في زيارةٍ خاطفةٍ للمكتبةِ العامة في المدينة جلس يقرأ في كتاب عن تاريخ الوطن وعن واقعه المعاصر.. وقعت عيناه على كتابٍ يتحدثُ عن خيراتِ الوطن التي أودعها الله فيه، وعن القدرات البشرية الكامنة في نفوسِ الشعبِ وعقولهم، لكنه قرأ أيضاً عن "الغول" الذي دمَّرَ ويُدمِّر الوطن، إنه الفساد الذي وضع مملكته في أرضنا ليجعلَ من الأرض الطيبة أرض همٍّ وبلاء يفرُّ منها أبناؤها إلى المجهول على أن يمكثوا فيه .

قدَّم أوراقه للتسجيلِ في الجامعة في تخصصِ الطب؛ لكنه فوجئ بأنَّ التخصصَ لا مكان له في الجامعة -الأشبه بمدرسةٍ أهلية- فاضطر لاختيار تخصص آخر بدلاً من الطبِّ الذي كان يحلم به!

كان والد كريم رجلٌ مسن، يعملُ في أشغالٍ حرَّةٍ هنا وهناك، مرَّ شهر كامل على دخوله في الجامعةِ والدراسةِ فيها، كان متميزاً ومبدعاً وذو طموح كبير يمكنه من انتزاع الأسى والألم الذي لحقَ أسرته من جراء رحيلهم، ويزرعُ الابتسامةَ في محياهم! .

بعد منتصف الليل كان كريم في بهو منزله يشاهدُ القمر.. يقول له:

الرحيلُ أمرٌ حتمي، والبقاءُ لا بقاءَ له، حتى الشمسُ المشرقة سيأتي اليوم الذي تعلن فيه النهاية وتشرقُ من مكانٍ آخر لتعلنَ الرحيل.! حتى أنتَ يرحلُ بعضكَ ثم تسعى جاهداً للقاءِ نصفكَ الآخر، وما أن تلتقيا حتى يتم الرحيل! الإيمانُ بحتمية الرحيل يخفِفُ من ألمِ الفراق.. وما أعرفه أنَّ العظماء هم من يرحلون.

أيها القمر الدائري:

ضوؤك جميل، وجبينكَ مشرق، جمالكَ يمنحني الحياة، لكن ثمة ظلامٌ في وطني.. حياة البسطاءِ مظلمة.. لقمة عيشهم مظلمة.. لم يستثنِ الظلامُ غرفتي.. الجدار مظلم، البيوت مظلمة، الزوايا مظلمة، المحاريبُ مظلمة.. حتى نفسي تعالجُ ظلامَ الرحيل الذي خَيَّم على قلبي ولم يرحل بعد .

في أثناء عودته من الجامعة دخل المنزل فسمع والدته تقول لأبيه: لم تعد تقدر على العمل فرأسك اشتعلَ شيباً، وجسدك لم يعد يقوى على التحمل.. قال لها: لا أريدُ أن اسمع منكِ هذا الحديث، لا أريدُ لكريم أن يعلمَ بمرضي، أريده أن يتمَّ تعليمه فلديه قدرات تؤهله ليكون من المبرزين في الجامعة وفي دروبِ الحياة.

سمعَ كريم ما دار بين والدته وأبيه وقرَّرَ من حينها أن يتولى زمام العمل من أجل راحة والده المسن.. بعد أدائه لصلاةِ الفجر؛ خرجَ كريم ميمماً وجهه نحو المدينة وسوقها بحثاً عن عملٍ تحصيله أشبه ما يكونُ بالمستحيلِ وأندر من الكبريتِ الأحمر في ظلِّ البطالةِ المتزايدة ،كذلك كانت شخصيته يغلِّفها الحياء، ولا يعرفُ كثيراً من دهاليزِ الحياة ومفارقاتها.. عاد بعد الظهيرة بخُفي حُنين، وبوجهٍ شاحبٍ وقلقٍ مرسوم على ملامح وجهه البريء.

اشتدَّ المرضُ بوالده فكانَ لزاماً أن يتحصَّل على عملٍ لإنقاذ أسرته من شبحِ الجوع وحمأة التسول، اهتدى إلى فكرةٍ للعمل استلهمها من جو المدينة الحار، فكان يبيعُ الماء البارد بين المارة وفي أروقة السوق، بدأ بترك دراسته في الجامعة شيئاً فشيئاً بسببِ انشغاله بحالِ أسرته وتدهور صحة والده. لم يكن يشعرُ بالحرجِ وهو يدورُ بالماءِ في حرِّ الظهيرة، كانت ذكريات طفولته تلوحُ ما بين فترةٍ وأخرى بين ناظريه وهو يرتعُ في نعيم والده ويعيشُ حياةً كريمةً قبل أن يأتي قرار الرحيل المفزع.

لم يتحمل كريم رؤية والده المسن يشتدُّ عليه المرض، ولم يكن ما يجنيه من عمله في بيع الماء يكفيه لعلاج والده، مرتْ ليالٍ كالحة بائسة على أسرةٍ شريفةٍ يتقلَّبُ والدها في ألمه ومرضه والعجز والعوز هما سيد الموقف، عند ذلكَ قرَّرَ الرحيل!

كانَ الخبرُ المفزع كالصاعقة على قلبِ أمٍّ ترى فلذة كبدها يقرِّرُ الرحيل إلى المجهول! أصرَّ كريم على فكْرته وعاهد أمَّه أن تُبقي الخبر سراً بينهما دون أن يعلم أحد، فأجابته بدموعِ أم تتألمُ من هول الرحيل الذي خيَّم بظلامه فجأة !.

فَتَحَ باب منزله بهدوء وخرجَ لصلاةِ الفجر والكونُ يعمه السكون والخشوع، وبعضُ كبارِ السن يأتونَ من هنا وهناك لأداءِ الصلاة، وما عداهم في سَكرة النوم يتقلبون، بعد الصلاة مباشرة أخذ حقيبته الصغيرة وقبَّل جبين أمه وألقى نظرةً على والده الممتد في فراش المرض، ولسانُ حاله: عذراً والدي فإني أرحل من وطني مجدداً لأننا في وطنٍ لا مكان فيه للبسطاء والفقراء والمعدمين!

خرج هائماً ليرحلَ إلى مكانٍ يستطيعُ من خلاله إسكات صوت الجوع والمرض، وليشعر بذاته وإنسانيته التي لم يجدها في أرضٍ قالوا له يومًا ما أنها وطنك!.

في المكانِ المحدَّد التقى كريم بمجموعةٍ من الأشخاصِ تبعثُ أشكالهم على القلق والفزع، لا سيما وهم من سيكونون رفقاء رحلته العصيبة من خلف السياج والحدود؛ سيراً في دروبِ المجهول، في سيارةٍ ضيقة مكتئبة مكتظة بالراحلين.

ظلَّ كريم يلمح وجوه القوم ويسترقُ النظر إليهم خلسة، وسحائبُ الدخان تجوبُ المكان، وهدوء عجيب يخيم عليهم، دبَّ الخوف في قلبه، وجعل يهمسُ داعياً ربَّه أن يوصله درب السلامة والأمان؛ ليتمكَّنَ من رعايةِ أسرته والحفاظ عليهم.

في طريقه ثمة أرضٌ وسماء، وأمامَ عينيه أرضٌ يباب واسعة بحجمِ الألم، أرضٌ مقفرة كقَفْرة قلوب الراحلين من الأملِ في أرضِ الوطن، صحراء شاسعة بحجم تناقضاتِ الحياة.

كان من رفقاء السفر شاب في مقتبل العمر بشوش الوجه تشع البراءة من وجهه، اطمئن إليه كريم وشعر أنه وجد ضالته في هذا الشاب ليكون رفيقاً له في رحلته الشاقة من خلف الحدود! تحدث إليه كريم يسأله عن حاله ولماذا قرَّر الرحيل بهذه الطريقة؟ ردَّ عليه قائلاً: ظروفُ الحياة هي من أخرجتني نضحي بحياتنا من أجل حياتنا! توفي والدي وتركنا في بيتٍ صغير يضمني وإخوتي، تخرجت للتو من الثانوية فقررتُ اللحاق بكثير ممن أعرفه من أهلي وأصدقائي ممن تركوا الديار بحثاً عن لقمة العيش!.

خيم عليهم الليل كمغارةٍ سوداء تكتظُ بالأهوالِ والرعب والآلام والصراخ.. أضواء تخترقُ الأجواء؛ لتنعكس على الأرض تبحثُ عن إنسانٍ مجرم يسير حافي القدمين ليصلَ إلى أرضٍ يظن أنَّ المال يُحثى فيها حثياً، وأن من دخلها فقيراً معدماً يعودُ بثروةٍ لا بأسَ بها، كل ذلك يحدثُ بعد أن تتخلى عن إنسانيتك وكرامتك في صندوقٍ للأمانات قابع في منتصفِ الحدين!.

أثناء سيرهم لمح كريم أشخاصاً يتألمون وسمع صراخاً من أحدهم يقطعُ نياط القلوب، سمع السائق يقول: في مثل هذا المكان تخلوا عن مشاعركم وأحاسيسكم وفكّروا بالوصول!.

نكّسَ رأسه واغتمَّ لما سمعَ، وأخرجَ ورقةً صغيرة وكتب فيها بعضاً من مشاهداته:

عند خروجي من الوطنِ الذي عشتُ فيه غريباً تغير وجه المدينة التي قصدتها.. صبغَ الشقاء والقسوة قلوب القوم.. دخان يعلو ويغطي جمال السماء.. وصراخ ينسابُ كالعويلِ اليائس.. وبعضُ الجثث ملقاة في رمالِ العذاب تنزفُ منها الدماء.. الخوف والهلع جعلنا ننظر إلى الموتى محزونين دونَ أن يفكِّر أو يجرؤ أحدٌ في مواراتهم التراب، لم تعد ثمة إنسانيةٌ يا أمي! لم تعد ثمة إنسانية.

أدخل الورقة في معطفه، وفي مكانٍ بعينه وقفت الحافلة وقيل لهم حثوا السير مشياً على الأقدام.

لملم كريم بقايا نفسه مما شاهده، وحزم أغراضه وبدأ المسير مشياً برفقة صديقه إلى مدينة العجائب - في نظر الراحلين - التي يبني الإنسان فيها نفسه من العدم ليصبحَ رقماً بين بني قومه عند عودته إليهم!

أثناء سيرهما كانا يتحدثانِ عن الأحلامِ والأمنياتِ والمستقبل والغد الجميل والذكريات وعن الغربة والألم والشوق والحب والأمل.. وبينما هما يسيران وأيديهما على بعضها غشيتهما لحظة صمتٍ جميلٍ مرت خلاله معانٍ عدة، البهجة، الغبطة، الرغبة، التوق، المجهول، الشعور، الانفعال، الحيرة، المغامرة،

التجريب، اليأس، الهم، الفرح، الكآبة، الغربة. بعد سير ليلٍ طويل قرَّرا أن يخلدا للراحةِ حتى يشرق شمس يوم جديد، وضع كل واحد منهما رأسه في التراب وناما نوماً عميقاً.

التقى بصديقِ طفولته عند وصوله للمدينةِ التي شدَّ إليها الرحال تعانقا عناقا طويلاً بُلِّلَ بدموعِ الشوقِ والحب، بدأ كريم بالعمل مع صديق طفولته واستطاع أن يحقِّقَ حلمه في مواصلةِ تعليمه فالتحقَ بمعهدٍ علمي واستطاعَ أن يوفر مالاً لإرساله لأمه وإخوته.

في إحدى الليالي رأى خِلسة ميار؛ فثارت الأشجانُ في نفسه، وتسارعت دقَّاتُ قلبه، تذكَّرَ وهما يلعبانِ سوياً بالطِّين، وهما يجريان يلهوان يتحدثان وها هي اليوم فتاة حسناء ممشوقة القوام، بديعة في الحسنِ والدلال، يطربُ القلب من النظر إليها.. حدَّثَ نفسه أن يتصل بأمِّه لإخبارها أنَّ حبَّ ميار منذ الصغر ما زالَ منقوشاً في جدرانِ قلبه، وأنه سيطلبها من والدها في الوقت المناسب، ثم شَرَدَ قليلاً ورأى نفسه بصحبةِ ميار في جسر البوسفور يتحدثان، وهما على أعتاب "أيا صوفيا" يتأملانِ ويمرحان وفي رحاب "إسطنبول" يعيشان لحظاتٍ من الحبِّ الجميل.. صرخ صديقه النائم بجواره صرخةً قوية: كريم قم ثمة دورياتٍ يبحثونَ عنا، قم لنهربَ قبلَ أن يمسكوا بنا.

قام كريم من نومه فَزِعاً خائفاً مضطرباً وقاما يركضانِ فاران من البؤس والعذاب، لكنه وهو يركض في ظلام الليل يتمتم في نفسه ميار ميار !! كل ذلك لم يكن سوى أحلامٍ وخيالاتٍ تخففُ آلام النفس، خِلْتُها حقيقة وأنا أرتمي

في أحضانكِ ميار بدلاً من أن أرتمي في ظلامِ السجون.. ثم يتأفَّفُ ويصرخُ حتى الأحلام يستكثرونها علينا.. أفٍّ من زمنٍ نعيشُ فيه! ..

استمرا في الفرارِ وهما يركضان، وسيارات أمن الحدود يتساقط الراحلون الفارون من غربة الوطن بين أيديهم مثل الفراش، صاحَ كريم بصديقه إنهم خلفنا سيُمسكونَ بنا وسنودع في سجونهم، ومن ثم سنعود إلى أوطاننا **غرباء مرةً أخرى**، وفي أثناء الفرار اختبأ صديق كريم وراء هضبة مرتفعة وواصل كريم الفرار مسرعاً في ظلامٍ دامس، وبينما هو كذلك لم يشعر بنفسه إلا في هُوة كبيرة قطعت الطريق لم يتمكن من رؤيتها لشدة ظلام الليل فوقع في شراكها! فإذا هي منطقة أعمال بناء إنشائية كبيرة .

هدأ صوتُ الدورياتِ وشعرَ صديق كريم بالأمانِ، فقامَ يبحثُ عن صديقه، يتحسسه في الظلام.. أينَ أنتَ يا كريم؟ بصوتٍ متهدج يناديه. أحسَّ بيديه أن ثمة هاوية، وسمعَ أنيناً من أسفلها فأظلمت في عينيه الحياة على إظلامها خوفاً على رفيقه، استطاعَ أن ينزل إلى أسفل المكان واهتدى لصوتِ الأنين، فرأى كريماً مضرجاً بدمائه وقد اخترقت أسياخ الحديد ـ المُعَدَّة للبناء ـ بدنه الفتي الجميل.

-كريم ما لذي ألَمَّ بكَ يا صديقي؟

-بصوتٍ خافت يهمسُ كريم، صديقي أشعر أنني سأتركك وحيداً للوصولِ إلى ...

-لا لا تقل ذلك .

يصرخ صديقه وهو يبكي سنواصلُ سوياً وسنحققُ كل الأحلام والأمنيات معاً.

-كريم: اسمع يا صديقي تذكَّر ما قاله السائق لنا سابقاً ونحن نتألم من رؤيةِ من فقدوا حياتهم، قال: "في مثل هذا المكان تخلوا عن مشاعركم وأحاسيسكم وفكروا بالوصول" ! وأنا أقولُ لك تخلَّ عن كل ذلك وفكِّر بالوصول! كل ما أريده منكَ أن تبلغ سلامي لأبي وأمي، أخبرهم أنني ضحيتُ بحياتي من أجل حياتهم، وأنني سرتُ إلى المجهول كي لا أرى أبي يتألمُ من هولِ الفقر والمرض، قل لأمي لا تبكي علي فبكاؤها يزيدُ من ألمي حيثما كنت، قل لها أن ثمة أسياخاً من الحديدِ اخترقت حشايا جسده المنهك لتمنعه من تحقيقِ أحلامه وأمنياته، أخبرها أنني كنتُ أودُّ أن أخبرها بحبي "لميار" وأنني كنتُ سأتقدم لخطبتها في الوقتِ المناسب، قل لها أن كريماً آلمه أن يعيش في وطنه غريباً فقرَّر الرحيل!.. وداعاً يا صديقي فدمائي تملأ المكان وقَدَري أن أموتَ غريباً فوقَ أرضٍ وتحتَ سماءٍ لا ترغبانِ بوجودي! فررتُ من غربةِ الوطن لأموتَ غريباً في صحراءِ الموت!

أغمضَ عينيه ونطق بالشهادتين وودَّع الحياة، اختاره الله ليعيشَ في مكانٍ هادئ جميل لا يشعرُ فيه بلهيبِ الغربة ولا مكانَ فيه للألم. وعندما أرادَ صديقه أن يلملم الجسد المتبقي، وهو يُقَبِّل جبينه، ويجمع يديه على صدره، وجده قد قبضَ في كفِّه على ورقةٍ كانَ قد كتبَ عليها بعضاً من مشاهداته وختمها قائلاً: **لم تعد ثمة إنسانية يا أمي ! لم تعد ثمة إنسانية .**

«لقد بذلتُ مجهودًا عنيفًا لأعْصِرَ مشاعرَ العبوديةِ من نفسي قطرةً قطرةً.. حتى استيقظتُ ذاتَ صباحٍ جميلٍ فاكتشفتُ أنَّ عروقي لم يعد فيها أثر لدمٍ ذليلٍ، وأنها تفيضُ بدمٍ إنسانيٍّ حقيقيٍّ».
تشخوف

عندما يحكمُ الغربان

دخل الغراب إلى الغابة وأسرابُ الغربان تحرسه عن يمينه وشماله، وتظلله من حرِّ الشمس، وجميعهم يهتفُ لجلالته وكلهم يشيدُ بإنجازاته !!

جلسَ على كرسي الحكم، وريشه منتفش، ورأسه مرفوعٌ لـ عنانِ السماء، ويتكلم بلهجةٍ ملؤها العظمة والكبرياء ..

وفي أطرافِ الغابة وعلى جانبٍ منها ترى الأسود تفترشُ الأرض، تأنُّ من حالها، تتضورُ جوعاً وتشتكي حرماناً، لا يُأبه لها، وليسَ لها في الغابة مكان، ثم تمشي قليلاً فترى هولاً؛ حيواناتٍ لها في تاريخِ الغابة مكانٌ ومقام، لكنكَ تجدها هزيلة خائفة مترقبة ما ينتظرها، وتعملُ على ما يسدُّ رمقها، وما يضمنُ لها لقمة العيش التي أصبح الحصول عليها من الصعوبةِ بمكان في زمنٍ حَكَمَ فيه الغربان !!..

مرَّ زبانية الغراب في الغابة يتفقدونها، علَّهم يسمعونَ صوتاً نشازاً يتحدثُ عن سيدهم الغراب؛ ليقطعوا لسانه. أو يجدوا ثائرينَ على وضع الغابة - القائم على تكميم الأفواه والظلمِ والتعسُف - ليزجوا بهم في السجون والمعتقلات !!..

أثناء سيرهم وبحثهم الحثيث وجدوا عصفوراً يتمتمُ بحديثٍ لا يُعرف، فتمَّ اعتقاله وضُرب ضرباً مبرحاً، وأوثقَ بالقيود، وجاءوا يسحبون به الأرض، ويشتمونه بأفظع الشتائم، ويكيلون له التُّهم جزافاً، حتى أوقفوه أمامَ الحاكم/المرشد "الأعلى" وبجانبه وزراءه الغربان .

- ما شأنُ هذا العصفور، قال الحاكم ؟

-ردَّ الزبانية المخلصون: سمعناه يا سيدي يُتمتم بكلامٍ وعباراتٍ لا شكَّ ولا ريب أنها تسيء لجنابكم وحكمكم الرشيد، وهم يعلمونَ جيداً - سيدي المُفدَّى - أنَّ الكلام محرم، ولطالما أخبرناهم في إِعلامنا وبُحَّت أصواتنا "أن ناموا ولا تستيقظوا ما فازَ إلا النوّمُ " .. لكن لم يستجيبوا !! ..

نظر الغرابُ الحاكم إلى العصفور المُقيد، وهزَّ رأسه قائلاً: هكذا إذن، ثم أردف مخاطباً العصفور: لماذا لا تدافعُ عن نفسك أيها الغِر؟.

- ماذا يفيد، إن تكلمتُ أو صمتُّ لا فرق، النتيجة واحدة، قال العصفور.

غَضِبَ الغرابُ المُفدَّى، واحمرَّ لونه، واشتدت سحنته سواداً، فقال: بمعنى أنني ظالم ولا أسمع لرعيتي ولا أنصفهم، وأنا من أنا في العدلِ والإنصاف، وكم وكم في الغابة من جمعياتٍ حقوقية حكومية تعملُ لخدمة الشعب وإنصافه، لأننا نؤمنُ بحقوقِ الغير وحرياتهم، ونسعى لإصلاح معيشتهم وأحوالهم، ونستميتُ من أجلِ راحتهم وسعادتهم.!!.

نظر العصفور إلى الغراب بعين السخرية والازدراء، وقال: الدليلُ على ما قلتَه «أنا» .

حمْلقَ الغرابُ متعجباً، كيف تكونُ دليلاً على ما أقول، «لم أفهم»؟

ردَّ العصفورُ بصوتٍ واضح: الدليلُ على عَدْلِكم وإنصافكم وحُبكم لشعبكم «أنا».. وجعلَ ينظرُ إلى جميع الحاضرين، وخاطبهم قائلاً :

يا سادة، من يتحدث أمامكم ليس عصفوراً وديعاً، من يتحدث أمامكم صقر جارح يعشقُ الحقَّ ويأبى الضيم! هنا بَدَتِ الغرابة على وجوه الحاضرين، كيفَ يكونُ عصفوراً وصقراً في اللحظة ذاتها؟ كيف يُعقلُ هذا؟!.

أنا صقر عشقتُ الحرية وحلَّقت في أعالي السماء، قال العصفور، لكنني صرتُ إلى ما ترونَ في ظلِّ هذا الحاكمِ الطاغية، فحينما حَكَمَنا الغربان، نالنا الحرمان، واستبدّ بنا الطغيان.

منعوا الحياة الكريمة أن تلجَ الغابة، على عتباتِ الذلِّ نقف، جرعاتٍ قاسية هوتْ على رؤوسنا، بطالة قاتلة ألمتْ بنا، رعْبٌ سكنَ كلُ من ينبسِ ببنتِ شَفَه، مُلئتِ السجون، طوردَ الثائرون، كُممتِ الأفواه، فُخختِ المساكن، دُمِّرَ كلُّ شيء جميل يدلُّ على الحياة، لم يعد للصقورِ مقام إلا في ردهاتِ السجون، ودركاتِ المعتقلات المظلمة، وباتَ أمْرهم في خبرِ كان.

ولمَّا كنتُ أعول أسرةً كاملة؛ خشيتُ إن اعتُقلتُ أن تضيعَ أمي وإخوتي، فآثرت السكون، وما كان مني إلا أن صرتُ عصفوراً وديعاً هادئاً كي أسْلمَ من كيدهم وأذاهم وبطشهم، ولا أدري كيفَ يتحدث المفسدون – أمثال هذا الغراب – عن الحرية والحقوق والكرامة؛ وهم مقيدونَ بسلاسلِ ذنوبهم وظلمهم وطغيانهم. لكن لن يدوم الظلم حتماً، وستُهدمُ قلعة الفسادِ والطغيانِ، وسيبزغُ الفجرُ، وحتماً سيعودُ الصقرُ صقراً كما كان .

سمعَ الغرابُ هذا الخطاب الثائر، فشتاط غضباً، وانتفخت أوداجه، وأعدَّ السيافونَ سيوفهم، وزمجرَ الزبانية لإهانة سيدهم وملكهم صاحب الفخامة !.

أُمِرَ بقطْعِ لسانِ العصفورِ على مرأى ومسمعٍ منَ الحاضرين، أشارُ الصقرُ الشجاعُ إليهم، أن انتفضوا، دافعوا عن حقوقكم وحقوقِ أبنائكم، انتصروا لكرامتكمُ التي سُلبت، وسمعتكمُ المُهانة، وشرفكمُ المدفونُ بركامِ طغيانهم، لكن لا حياةَ لمن تنادي .

أغمضَ الحاضرونَ أعينهم، وراحوا يتمتمونَ بقول: لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله، ويلهجونَ بصوتٍ خاشع: «اللّٰهُمَّ إن هذا ظلم ومنكر فأَزِلْه ».

قُطعَ لسانُ «الصقر»، وجعلوا يقولون له: قلوبنا معك، وألسنتُنا تلهجُ بالدعاءِ لك .

نظرَ الصقرُ إليهم، وعيناه تذرفانِ دموع الألم، على أمّةٍ باعت كرامتها لغربان يتعوذ الناظرُ من رؤيتها..

أرادَ أن يتحدثَ إليهم كلماته الأخيرة .. لكنهم لم يفهموا شيئاً مما يريدُ قوله؛ لأنَّه دَفعَ لسَانه ثمناً للحقِّ والحرية والكرامة .

اشتدَّ عليه التعب، ودماؤه ملأتِ المكان، عندها لم يجد بدّاً من أن يجعلَ دَمَه مداداً ليكتبَ كلماته الأخيرة؛ علّها أن توقظهم من سباتهم، وغفلتهم، وذلهم الذي يعيشونه .

بدأَ يكتبُ بدمه، وهم ينظرونَ إليه، ولسانُ حاله:

« إننا – معشر الصقور- لا نكتبُ بمدادِ القلم، ولكننا نكتبُ بدمائنا المُراقة بين أيديكم، فُعذراً إن ظهرت آثارُ الجراح في سطورنا » . ومما كتبه في تلكَ الحال :

اعلموا :

أنَّ من انهزمَ أمامَ نفسه في معركة الصلاح والتغيير، حريٌّ أن ينهزمَ أمامَ غيره في معركة السلاح والنفير ..

اعلموا :

أنكم ستعيشونَ تفترشونَ الذل، وتلتحفونَ المهانة؛ ما لم تستيقظ ضمائركمُ الميْتة، التي استحْلت رضاعَ الخوفِ والجبنِ والصمتِ القبيح .

اخلعوا لباسَ الخوفِ من نفوسكم، وعيشوا من أجل قضيتكم، وموتوا شرفاءَ في أرضكم .

ثم اشتدَّ عليه التعب والإعياء، وتمتمَ بكلماتٍ متقطعةٍ وصوتٍ خافت:

« اللّهُمَّ ارحم صقراً أمضى حِقبةً من عمره عصفوراً ، ثم انتفضَ على الظُلم، ودفعَ ثمناً لذلكَ روحه؛ ليُقال: رحمَ الله صقراً عظيماً » .

وفي لحظةٍ باتَ الكون كله أنا والله جلَّ جلاله، أنا شيء صغير قد استسلمَ لمصيره، وتعلَّقَ كل رجائه بالحقيقةِ الكبرى، بذي الفضلِ العظيم؛ فأضاءت في وجداني عين صارت ترى أشياء جديدة، أشياء لا تُجسَّدُ، بل أنوارًا تنتشرُ في أرجائي تمنحني أمنًا وسلامًا.

صرخاتٌ من أعماق الجبل

كما هي عادة الشباب يحبونَ الخوضَ في الصِعاب والمغامرات، وامتطاءِ المجهول، كنتُ في بستانِ الله الممتد على الجبال المرتفعة في مدينة إب، المكسوة ببردة خضراء، في أكثر أيام العام أمطاراً على الإطلاق، وقد حبست الجبال برودة البكاء المندفع من السماء في فصل الشتاء الزاهي، ودخان الضباب يلفُّ المدينة بين حين وآخر، وهي تبدو خاشعة وقور، يحارُ الناظرُ من جمالها وروعتها، ويتلعثمُ اللسانُ عن وصف شيءٍ من حُسنها الأخاذ، ولا يملكُ الناظر إلا أن يقول " سبحانَ من خلقَ فأبدع".

في هذه الجنة الخضراء الجميلة حدَّ الفتنة، كنتُ أتأمل وألهو مع من حولي من الأحباب والخلان في لحظةِ مرحٍ جنوني، رأيتني أتوسطُ لفيفاً منهم، نتسلَّقُ جبلاً شامخاً يكادُ يكونُ الأعلى ارتفاعاً في المدينة، نمضي في طريقنا نتخطى الحجارة، ولم أستدر حتى تناهى إلى سمعي أصواتٌ تنادي من مكانٍ لا يُرى، فأسرعتُ ومن معي الخُطى في تسلق الجبل نتتبع الصوت القادم من أعماق الجبل، ومع جلالة المنظر، وعِظم الجبل ووعورته وجدتُ نفسي منفرداً ليس معي إلا شخص واحد تربطني به علاقة زهيدة .. واصلنا المسير ونحن نظن أننا نسير في الطريق الصحيح.

كنا كلما صعدنا إلى الجبلِ تشعبت بنا الطرق، وضاقت بنا المسافات، وازدادت في أعيننا رهبة الجبل، وجعلت أقدامنا تسير بنا ونحن لا ندري أين

نتجه! .. حتى وصلنا إلى مكانٍ غابتْ فيه الأصوات.. وضعُفت فيه الرؤية.. وأصبحنا في مكانٍ معزولٍ لا يرانا فيه إلا ربُّ الجبل الشامخ ..

طفقتُ أنظر عن يميني فلا أرى إلا أجزاءَ الجبل المترامية، وعن يساري كذلك .. ونحنُ في حال كهذه، بدأت زخات المطر تنزل رويداً رويداً حتى اشتدَّ المطر.. وما هي إلا لحظات حتى خيَّم على الجبل ضبابٌ كثيف، فزاغت أبصارنا، وضاعت في متاهات الجبل.. وكأنَّ الحجارة كانت في حالة انتظار لكسوة الضباب لما بدى من عريها قبل ذلك.. اشتدَّ بنا الخوف من شدة المطر وكثافة الضباب الذي شكل حاجزاً بيننا وبين رؤية أي شيء من حولنا .. عند ذلك بدأتُ أنادي بعض من كانوا معنا، لكن دون جدوى، فأنَّى لهم أن يسمعوا !!..

اعتراني ذهولٌ وحيرة لا أدري ما أصنع؟.. أأنزل.. لكن كيف ؟! والنزول أشبه بالمحال، لعدم وضوح الطريق ووعورته.. أأواصل المسير والصعود إلى الأعلى، كيف ؟ وإلى أين ؟ إلى المجهول.. وأنا لا أدري ما ينتظرني.. بردٌ قارص .. ومطرٌ شديد.. وضباب كثيف كئيب.

اشتدَّ الحزنُ بي واستبدَّ بيّ الهلع؛ عندما رأيتُ الحجارة تندفعُ من أعلى الجبلِ في حالة هياج.. صخورٌ هائلة تنحدرُ من أعلى الجبل إلى أسفله.. لو سقطت على واحدٍ منا لجعلته أشلاء ممزقة.. حاولتُ أن أتمالك نفسي وأنا في قمة الاضطراب .. برد .. مطر .. ضباب .. حجارة تتساقط على رؤوسنا .. التفتُّ إلى الشخص الذي كان معي فرأيته أشدَّ اضطراباً مني، وقد دفن وجهه في يديه، وفقاعة من الجزع تملأ صدره ، تألمتُ كثيراً عندما أخبرني أنه حديث عهد

بزواج، ورأيتُ قطرات الدمع تنهمر من عينيه، وهو يتذكرُ "فتاته" عند خروجه وهي تبكي فراقه..

أمَّا أنا فتذكرتُ أمي، كيفَ ستتلقى خبر رحيلي المفاجئ ؟! كيف سيكونُ حالها؟.

أسئلة مزعجة تدور في رأسي فأستعيذ بالله منها ..

ثم أفكِّر ماذا أفعل؟.. وتتوالى عليَّ التساؤلات ..

-ما الذي أتى بي إلى هذا المكان ؟؟..

-وكيف السبيل إلى الخروج من هذا السجن الكبير؟؟..

حاولتُ بكل ما أستطيع أن أقوم به للخروج من هذا المأزق الرهيب، لكنني لم أفلح في الإمساك بخيط أمل للنجاة من أعماق الجبل المهول، ازددت اضطراباً عند ازدياد الحجارة المتساقطة، وأيقنتُ أني هالكٌ لا محالة.. وأنها الساعات الأخيرة لي في هذه الدنيا التي لم أرها جيداً .. فأنا ما زلتُ شاباً يافعاً .. وإذا بي أرى دموعي تندُّ على خديَّ دون شعور، وأيقنت حقاً بالهلاك .. وبدأت ذاكرتي تجترُّ شريط الذكريات لـحياةٍ قصيرة قضيتها على وجه هذه البسيطة بالتفريط تارة وبالتقصير والكسل تارة أخرى.. استغرقت في الخيال مع سيلٍ من الدمع ينهمر على وجهٍ رأى الموتَ عياناً !

وبينما أنا في هذه الحال من اليأس البغيض بدأت أتمالك نفسي .. وأهدأ من روع الشاب الذي معي، واتفقنا سوياً أن ندعو الملك، ربُّ الجبل والمطر والضباب والخوف.

بدأ الشاب يدعوا، وبدأتُ أدعوا بتمتماتٍ ملتاعة، رفعت يدي وقلتُ يارب.. لكأني أول مرة في حياتي أهمسُ بهذا اللفظ بشعورٍ مهيب، يارب.. وجعلتُ أدعو وأبتهلُ وأبكي وأتذكر هفواتي، وأحلامي، وأيامي. أتذكر نور القلب أمي.. والتي سترتدي برحيلي أثواب الحزن والألم والحرمان.. وسينهمرُ سيلٌ من الدمع الحزين على وجهها المشرق؛ ليجعلَ منه وجهاً شاحباً حزيناً تبقى آثاره على مرِّ الأيام تروي قصة فقْد لحبيبٍ له في القلب مكان لا يطأه النسيان.

وأنا أبكي وأبتهل وأتضرع في حالة جزع وضعفٍ ظاهرين، شعرتُ بدفءٍ غامر، أحسستُ بسكينة تتملكني، بعد أن اعتراني الخوف والجزع، وكأنَّ يداً حانية تمسحُ قلباً يرتجفُ من شبح المجهول في أعماق الجبل، شعرتُ بقرب الله مني، شعور لم يخالجني من قبل.

من مكانٍ بعيد أقبلَ شبحُ الليل يضيءُ بومضاتٍ فجائية من الأحمر والاصفر، فقررتُ أن أمشي قليلاً حتى لا يدركنا الليلُ ونحنُ في أحضانِ الجبل المفزع، تحت سماء لا نجوم لها.. وما أن تخطيتُ عتبة المكان الذي كنتُ أقبع فيه، لم أشعر بنفسي إلا وقد زلَّت قدمي وهويت.. فسلمتُ الأمرَ لله، وأغمضتُ عيني. تهدَّج الشابُ الذي معي بصوتٍ يائس.. انتبه .. لا تتركني وحيداً.. وجدتني متشبثاً بغصنِ شجرة متهالك على صخرةٍ مفتتة من شدة الصخور المتساقطة عليها.. عند ذلك كادَ اليأسُ أن يلبسني بردته مرة أخرى بعد أن خلعتها.. فصرختُ من أعماق قلبي - وعيناي صرختا بالدموع- يا الله.. وخانتني الكلماتُ من هول الموقف وما وجدتُ على لساني سواها ..

ما هي إلا لحظاتٍ حتى جاء الأمر الإلهي.. فأقلعتِ السماءُ عن البكاء، وسكنَ هدير الجبل، وانزاحت كثبان الضباب، وأنار الله بصيرتنا بأن سلكنا طريقاً جعله الله أملاً للنجاة من موتٍ محقق، وشاءتِ الأقدار بعد مخاضٍ عسير أن نرى العالم من حولنا من جديد.. خرجنا من بطن الحوت، قال لي الرفيق.

واصلنا المسير حتى وصلنا إلى غايتنا.. فحمدنا الله .. ولسان حالنا يقول:

يا حيُّ يا قيوم .. كم استغثنا برحمتك وركنَّا لعظمتك وقوتك ..ولم نيأس من الإجابة ..

ولن نيأسَ مهما طال الزمن .

دونَ الكتاب نكونُ لا شيء، وسنظل نرفل في أثوابِ الجهل لغفلتنا ورغبتنا عن القراءة والكتاب، ولذة النظر في مطالعته.

واقع

قبيلَ الغروب قعد الأديبُ المُسِنُّ على حجرة عركتها المحن، يتأمل حالة الاحتضار بمغيبِ شمس الحياة، أقبل عليه شابٌ في مقتبل العمر، يطلبُ العون؛ هدَّه اليأس وتملَّكَه الإحباط، غارقٌ في النمطية، يدور حول نفسه دون فائدة، يشعر أنه لم يتقدم خطوة واحدة للأمام، الحظ والكون والبشر والحجر، الجميع يقف في وجهه كما يقول هو!!

أخرجَ الأديبُ المسنُّ كتابين لأديبينِ عظيمين، مكتوبٌ في غلاف أحدهما:

"أيها الشابُ البائس، خذ الكتاب فهو سلاح!"

أخذ الكتابين ومضى صوب الرجل الذي يفترش الأرض يبيع الكتب، باعَ الكتابين بدراهم معدودة، واشترى بهما شطيرتين، وفنجاناً من القهوة، وحزمة من الأعوادِ الخضراء !!

سـأبقى بانتظـارِ يـومٍ جميـل صـنعته في مخيلتي.
محمود درويش

الحب تحت ظلال الموت

لم تمضِ على ليالي الحبِّ البهيج إلا أياماً قلائلَ وليالٍ معدودات.. حتى دوَّتْ أصواتُ المدافع على سقفِ بيتٍ كان يضمُّ بين جنباته قصةً من أطهرِ قصصِ الحبِّ في تاريخ الإنسانية البائسة..

قاما فزعين ولاذا بالفرار خوفاً على نفسيْهِمَا من بطشِ "السفاح القذر" الذي قتل البشر ودمَّر الأرض والحجر وشوَّه الجَمَال .

صعدا إلى مكانٍ أشبه ما يكون بالجبل؛ ليحتميا في أحد كهوفه، علَّها أن تكون حائط صدٍ من قذائف الموت، وتمنعهم مما هو نازلٌ بهم؛ لتبقى قصة الحب الوليد التي أراد أن يجهضها البشر ببطشهم وعدوانهم..

سارا قليلاً بهدوءٍ يكتنفه الخوف والحذر.. أمسكَ بيد "لجين" بعد أن تلاطف معها بحديثه: كدنا أن نكون من عِداد القتلى الذين يُذبحونَ كل يوم – كما تُذبح النعاج – على يد السفاح القذر وأعوانه.

-لجين:

لا عليك يا قرَّةَ العين فالأقدار وخالقها يقفونَ معنا.. وفي أثناءِ سيرهم تقدَّمَ "أمير" ليبحثَ عن مكانٍ آمنٍ يأويهما، وبحركةٍ سريعة زلَّتْ قدمه ليجدَ نفسه معلقاً بغصنِ شجرةٍ حاد قد استقرَّ في أحشائه؛ لينفجر الدم بعدها كشاهدٍ على جريمةٍ أخرى من جرائمِ الطاغيةِ على سفح الجبل ..

- صرختْ لجينُ من أعماق قلبها:

«ألم أقل لكَ على رِسْلِكَ يا حبيبي؟

أقفلتُ عليكَ فم الطريقِ بقلبي ولكنكَ أرخيته عن سبيلكَ ومضيت !!..

يتمتمُ أمير بصوتٍ متقطعٍ هدَّه الألم :

- دعيني يا حبيبتي فعتابكِ يحرقُ جراحاتي الأليمة، ويزيدُ من وطأتها علي ..

دعيني يا أغلى من روحي التي لم أعُدْ أملكها، كُفِّي عتابكِ يا «أنا» فإني أشْعرُ بسعادةٍ غامرةٍ إذْ رويتُ ظَمَأ حبي لكِ بدماءِ كبدي وعصارة قلبي وروحي».

- لجين:

«يا حبيبي:

عندَ مشرقِ آمالي فقدتك،

وعندَ بزوغِ فجرِ الحب أردتَ أن تتركني وحيدةً أقاسي مرارة الأيامِ ووحشتها ..

كيفَ لي أن أطالَ جرحكَ فألثمه بشفتي؟..

أم كيفَ لي أن أجثوا أمامكَ لأخففَ عنكَ قليلاً مما تعانيه؟

لا أدري كيف يطيبُ العيش بعدكَ ووجهكَ الوضَّاحُ آفلٌ تحتَ التراب؟

- أمير:

لجين ..

أكثرتِ عليَّ يا حبيبةَ القلب،

وها أنا -هنا- من سفْحِ الجبلِ أعلنُ عن عجزي وقلت حيلتي، فجراحي تتَّسع، والألمُ يشتد، ونفسي تأنُّ، وروحي حزينة لأنها لن تراكِ بعد اليوم .

لجين، لا تبكِ عليَّ عند فقدي، سأكونُ حزيناً لبكائكِ يا سماءَ عيناي الشاخصتان .

«دعيني للقضاءِ الذي تخطفني منك ..

واغسلي آثارَ ذكرايَ في نفسكِ بماءِ النسيان.. وابحثي ففي الدنيا الواسعةِ كثيرٌ من أمثالِ أمير».

- لجين:

لا.. لا لن أذهبَ إلى أي مكان.. سأبقى هنا حتى ألحقَ بك .. سأكونُ حارسةً على ضريحٍ دُفنَ فيه الحب علَّني ألمسُ لذةَ القربِ منك .!

لن أسْتَسْلِم لمخالبِ الأيام كي تُمعنَ في تمزيقِ شملنا، وخَنقِ الأملِ الذي نحيا به، يريدونَ هدمَ العُش وبعثرت أنقاضه مع الريح يا أمير.

«سأصبحُ بومةً باكيةً تنعبُ فوق الأطلال ..

أمامَ مغْربِ الآمال ..

وعندَ كل زهرةٍ اعتصفتها الريح ..

أو كوخٍ قوضَتْه الأعاصير ..

عندَ كل ثكلى فقدتْ حبيبها ..

أو يتيمٍ يبكي أباه ..

عندَ كل غصنٍ أيبستْه رياحُ الخريف ..

عندَ كلِّ شهيدٍ من أبناءِ وطننا يسقطُ صريعاً كلّ يوم على يد سفاحِ الحب وقاتل الجمال» .

سأكونُ خنساءَ العصْرِ بفقدك،

سأكونُ حاملة لواءِ الحزن.. وثكلى مملكةِ الحب وناعية الجمال.. ستكونُ حياتي بعد فقدكَ يا أمير سرابٌ سراب ..

أتدري لماذا أحملُ ثورة الحبِّ في قلبي؟

لأنكَ غرستَ فيه كيفَ يكونُ «الحب». علمتني حروفه التي عجزَ المثقفونَ عن قراءتها . علمتني أنَّ العاطفة قد تكونُ عمياء.. أما الحب.. فمن الكذبِ والبهتانِ أن نَصِفَه بالعمى.

سقيتني ماءَ الحب العذب الذي روى ظمأي وسَكَنَتْ به نفسي، فلطالما كنتُ ظمْأى فارتويتُ من بحرِ حبك .

- أمير:

لحين ..

سنلتقي عمَّا قريبٍ في مكانٍ لا نسمعُ فيه دويَّ المدافع، في مكانٍ لا يُشمُّ فيه رائحة الدماء.. ولا تُسكبُ فيه دموعُ المقهورين، في مكانٍ مليءٍ بالورودِ العطرة التي تهيمُ لـرؤيتها قلوبُ العاشقين، هناك.. هناكَ يا حبيبتي .

وداعاً يا أميرتي، فقد جفَّ الماء، واستعر الفؤاد، واحترقَ كبدي ألماً، فدعيني ابكِ حالَينا، وأجمعُ على وسادةِ الحزنِ رأْسَيْنَا، فكلانا غريب، وكلانا عن الأحبةِ بعيد، وكلانا ينتظرُ الخلاص، خلاصي من دنياكم الراحلِ عنها، وخلاصكم من طغيانٍ يقتلُ أحلامكم.

(أغمضتِ العينان.. وأسْدِلَ الستار) .

- لجين:

أمير ..

سأعصبُ عيناي بوشاحيَ الأسود ثم أهوي إلى القدرِ الذي سبقتني إليه. وقبل أن تُلقي بنفسها، وقفت هنيهةً؛ لاستشعارها العظمة الإلهية، فخرتْ باكيةً في محرابِ الرضا واليقين. وقررتْ أن تبقى صامدةً من أجلِ النسْمَةِ التي في أحشائها؛ لتخرجَ إلى النور وقد طُهِّرت الأرضُ من قذارةِ الطغاةِ وخبثهم وإجرامهم.. لتستمتعَ حينها بعبيرِ الكرامة، وضياءِ العزة الذي حُرم منه أباها .

ولإيمانها أن النصر حقٌّ قدري وسنةٌ ربانية من سننِ الله في أرضه، وأن «الليل لا بدَّ بعده من طلوعِ الفجر»، وأنَّ زوال الطغاة والمجرمين المستبدين حقٌّ كإيمانها بسورةِ العصر .

ثمَّ أُسدلَ الستار على قصةِ حُبٍّ أجهضها البشرُ بعدوانهم.. لتبقى شاهدةً على مر العصور، على قذارةِ الطغاة الذين سفكوا الفضيلة، وقتلوا الحب، وشوهوا الجمال .

والحقيقة الصادمة: أنَّ صديقي الثائر الذي كان ينشدُ الدولة العادلة الآمنة الحديثة يموتُ وعيناه لمّا ترى بعدُ كل ذلك.

عندما يمتزج الحديد بالدم !

أثناء عودتنا من المدرسة كنا نسمعُ صوتَ الطائرة من بعيد يشقُّ عُبابَ السماء، نطير فرحاً وننتشي سعادة لرؤيتها وكأننا من ركابها، وما أحببناها إلا لغرابتها وتعجُبنا كيفَ تحلق في السماء مُفْرِدةً جناحاها بكلِّ شموخٍ وإباءٍ دونَ أن تسقط.

صديقي "نبيل" شُغف بعالم الطائرات، وأصبح من هواتها، ويعرفُ الكثير عنها، ويستهويه مظهرها وهي تحلق بكلِّ ثبات قبيلَ الغروب فوق البحر وعلى مقربةٍ من الشمس الراحلة كما يُخيَّل للناظر .

دائماً يهمسُ في أذني، أريدُ أن أكونَ طياراً، كنتُ أبعثُ فيه الأمل بكلماتي وأناديه " بالكابتن" .

على مقربةٍ من باب الجامعة التقيتُ بصديقي الذي فصلني عنه الزمان، وناءت بيننا الديار، وأصبحت مرحلة الدراسة من ذكريات الماضي الجميل .

تفاجأت عندما علمتُ أنه يرغب الالتحاق بكلية "الطب"، سألته: أين حلمك الذي انتظرتَه طويلاً ؟!

قال لي : كان حلماً جميلاً لكنني أدركتُ أنَّ دخولي الطب سينفع الله بي خلق كثير وأريد أن أضع بصمة في الإنسان المسكين الذي أنهكته المتاعب والآلام.

وثمة سبب آخر بغّض إليّ هذا الحلم الجميل .

قلتُ له : ما هو ؟

أجابني منزعجاً، بدأتُ أبغضها عندما رأيتها أصبحت سبباً في دمار البشر والحجر.

وامتلأ قلبي كرهاً لها بكل قطرة دم تسببت في سفكه، إن طائرات الشيطان التي لا ترحم أحداً كشفت قناع الأفاعي الحاملة على ظهرها لواء الدفاع عن حقوق الإنسان الذي قتلته.

يا صديقي إذا انكشفتِ السماء فسدتِ الأرض، وعربد الظلم، وعمّ الضباب وخيم الظلام، لتصبح الرؤية ضبابية مضطربة، لا ترى شيئاً ولا تسمع إلا طائرات تنتهك عذرية سمائنا وتدوس على ما تبقى من استقلالنا وسيادتنا بحجج قبيحة سيتحدث التاريخ عنها في صفحاته السوداء أنّ أمةً في زمنٍ مضى سمحتْ لعدوٍ سافر أن يستبيح سمائهم ويسفك دماءً بريئة امتزجت بالبراءة تارة والتأويل أخرى تحت شعار "محاربة الموت" الذي دُمرت الديار، وقُتل الأطفال، ورملت النساء، وسالت الدماء في الأروقة، بسببه.

وأصبح الناس يتحسَّسون السماء علَّ صوتاً مشئوماً يأتي فيحيل الأرض العامرة إلى يبابٍ وأشلاء ودماء ودمار.

قلتُ له : صدقت، وابتسمت ابتسامة "إعجاب وإكبار" ووضعت يدي على كتفيه مباركاً وداعياً ومعجباً لمستوى الفكر والنضج الذي وصل إليه.

في السنة الخامسة من دراسة الطب وفي عطلة الفصل الدراسي الأول يعود نبيل إلى مدينة صنعاء في زيارة قصيرة.

كانت شمس الظهيرة تقفُ في قلبِ السماء عندما شاهد الناس طائرةً عسكرية تهوي من رحم السماء لترتطم في إحدى البنايات في شوارع صنعاء التي باتت تعرف سماؤها "بممطرة الطائرات"، لكثرة ما سقطت فيها من طائرات، تُقيد حوادثها على مجهول!

تناقلت الخبر وسائل الإعلام المختلفة وانتشر كالنار في الهشيم وهرع الصحفيون من كل حدبٍ وصوب لتغطية الخبر المرعب لينقلوا الحقيقة من خلال شهادتهم وعدساتهم التي لا تفارقهم.

وصلتني رسالة إخبارية على جوالي تفيد أن طائرة تحطمت في صنعاء وأنباء عن إصابات وقتلى ، ركضتُ مُسْرِعاً إلى التلفاز لمشاهدة ما حدث، فرأيتُ طائرة محطمة امتزج فيها الحديد بالدم.

ما هي إلا لحظاتٍ لتظهر صور الضحايا في شاشات التلفزة فكانت الفاجعة المُرة، فانفلت مني زمامَ روحي، وانكسر ميزان إرادتي، واختلّ استواءُ فكري حينما شاهدتُ صديقي الذي أمضى حياته عاشقاً للطائرات يُسحب من كثبان الحطام جثة هامدة ودماؤه تملأ المكان لتكون شاهدة على جرم غامض وجريمة مستترة وإهمال فاضح وكارثة مؤلمة.

كفكفت دموعي وأنا أغالبُ عبرتي وأتذكر صديقي الطبيب الذي قرَّرَ أن ينقذ البشرية بعلمه فكوفئ بالموت من طائرة أمضى عمره هائماً في حبها.

إنَّ موتَ "نبيل" طعنة في خاصرة دولٍ تعيشُ إهمالاً وفوضى جعلتنا في مصافِ الدول الفاشلة مع مرتبة العجز.. وتعيشُ فساداً عميقاً ينخرُ في كل

مفصلٍ من مفاصلها . ونحيا في مكان ما من هامش الكتاب، لا مكان لنا في المتن .

كان صديقي واحداً ممن بُحت أصواتهم للعيش في مكانٍ لا مكانَ للألم فيه، رابط في الساحات لإسقاط الظلام المُمعن في صنعِ الإهمال والفشل والجهل. لكن تبقى الحقيقة أنَّ صديقي الثائر الذي كان ينشدُ الدولة العادلة الآمنة الحديثة يموتُ وعيناه لمّا ترى بعدُ كل ذلك .

وكنتُ أشعر بشعورٍ غريب، كما لو أني أسيرُ إلى لقاءِ الموت، لا أدري كيف طاوعتُ نفسي، ومضيتُ أحملُ روحي بين كفّي وأضعها بين يديه بأزهدِ الأثمان! اللعنة على الحاجة المُذِلَّة!!

بشرى

كنتُ أسيرُ وحدي، أقلبُ أفكاري و أتصارعُ معها، أغلبها تارةً وتغلبني، كنتُ موغلاً في التفكير، مبتلاً بهمومي وهمومِ الأخرين، في المسير وحدي أشعرُ بهدوءٍ يهذّبُ أفكاري، ويهدّأ من اضطرابِ خواطري وهواجسي.. أثناءَ المسير وجدتني أقفُ فجأةً ! وقد كنتُ أحثُ السيرَ للعودةِ إلى المنزلِ قبلَ حلولِ الظلام؛ باتتِ المدينة مسلخاً لأرواحنا، وباتَ الظلام يتلذذُ بإغراقنا وسلبنا كل حقوقنا للعيشِ بكرامة.. توقفتُ وأمعنتُ النظرَ في الرجلِ الذي يقفُ في الجهةِ المقابلة أمامَ بائعِ الكتبِ الذي يفترشُ الأرضَ منذُ سنين؛ كمكتبةٍ هوائيةٍ يتخلصُ فيها من قيودِ الحيطان والنمطية التي تفرضُها ساعاتُ البقاءِ في مكانٍ واحد .

كنتُ مذهولاً من رؤيةِ "هلال" منكسرَ الخاطر، مهيضَ الجناح، مُمتلأً بالحزن، وهو الرجل الذي لا تفارقُ الابتسامة محياه، دسَّ في جيبه شيئاً منَ النقودِ ومضى !

لم أمتلك شجاعةً لأناديه، مضيتُ مسرعاً لبائعِ الكتبِ كالملهوف، صببتُ عليه عشرات الأسئلة، وكانت له بي معرفة. قال لي: من كانَ يظنُ أنَّ هلال الكتبِ تأتي عليه لحظات يبيعُ فيها فلذة كبده، ومهجة فؤاده ، إنه الزمن الرديء الذي نعيشُ فيه، إنه الزمن الرديء!

كنتُ في حالٍ من الألم لا يوصف، جعلتُ أقلبُ كتبه صفحةً صفحة، كانَ يقابلني في الصفحةِ الأولى شعاره الموسوم في كل كتبه: من مكتبةِ الفقيرِ إلى الله هلال الكتب، عفا الله عنه ..! لم أعد أقوى - في تلكَ اللحظة - إلا على البكاء،

كنتُ أبكي هلالاً وكُتُبَه التي ملأت تلك البُقعة المعدة لعرضِ الكتب، أبكي الجاحظَ والتوحيدي وابن تيمية والغزالي والجرجاني والمتنبي، كنت أبكي اللغة والفقه، والحديث والشعرَ والأدب والفلسفة والمنطق والسياسة والتربية .. كنتُ أبكي مئاتَ العناوين التي احتفظ بها لعشراتِ السنين وجمعها كلؤلؤٍ مكنون، وكانَ بها ضنين، واليوم تُعرضُ على الأرصفةِ بأزهدِ الأثمان !

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى منزله للقائه، فأخبرني أحدهم أنه في المستشفى مع زوجه التي تخضعُ لعملية قيصرية، يممتُ وجهي نحو المشفى، ذهبتُ أسألُ عنه، فأُخبرتُ بمكانه، كنتُ أسيرُ إليه وأنا في حرجٍ بالغ من رؤية الهلالِ وقد تلاشى، وجدتني أقفُ في بدايةِ الممر المؤدي لغرفةِ العمليات، خرجَ هلال ورآني، فبكى، كان يرى فيَّ كُتُبه التي بِيعتْ، كنتُ أناديه هلال الكتب، ويناديني بسراجها، احتضنته وهو يجهشُ في البكاء، قال لي : لم أعد بعدَ اليوم إلا هلالاً فقط ..! بعتُ حياتي ومهجتي يا سراج، لم أقوى أن أرى زوجتي تموت، ولم أحتمل ذلَّ الدَّيْن الذي أنهكَ ظهري.. كنتُ أودُّ أن أكونَ قوياً رغمَ الألمِ المسيطر على كياني، رغمَ البللِ المستوطن في عيني، رغم الإقصاء الذي آلمني، رغم الضعف الذي يعتريني، الضعف الذي قررتُ أن لا يعلمَ أحدٌ عنه شيئاً ! ...

قلتُ له: ليسَ عيبكَ ولا ذنبك يا هلال، وإنما عيبُنا وذنبنا أن أشحْنا بوجوهنا عن حاجتكَ في وقتٍ غابَ فيه الهلال، وكُسرَ فيه القلم، وغابت المبادئ، واختلَّ ميزانُ العدالة، وتوارى العلمُ، وبرزَ الموتُ وحاملوه !..

أبشرْ يا هلالَ الكتب:

فمهجتكَ وحياتكَ تُزفُّ الآن لمنزلك، فقد عادت إليك.. لم يُنهي سراج بُشراه لهلال إلا وصوتُ الممرضة يزفُّ البشرى بمولودةٍ جميلة تملأ الحياةَ حياةً.. بكى هلال فرحاً، وقال:

حمداً للهِ على السلامةِ يا أم بُشرى.

عندما ترتفعُ الروح، ينتشرُ شداها بينَ الخلق، فتُرى كما لم تُرى من قبل .. ويعيشُ - صاحبها - حياً بينَ الأمواتِ الأحياء، بعد أنَ كانَ ميتاً بينهم في لحظةٍ ما..

مسودة عباس

منذُ بدءَ في تحقيقِ حلمِ والده؛ قرّر عباس عدمَ الرضوخ والاستسلام للتهميشِ والاقصاءِ والتغافلِ الذي لحقَ به من قِبلِ مجتمعٍ لا يحفلُ بمبدع، ولا يلتفتُ لصاحبِ قلم ..

عاشَ في مكتبةِ والده منذُ نعومة أظفاره، نهلَ منها شيئاً من المعرفة والفنون، وفيها امتزجَ كيانه بالقلم، وهناك كانت قصةُ العشقِ الجميل .

بعدَ سنواتٍ توفي والده، فوجدَ نفسه وحيداً إلا من مكتبةٍ رابضةٍ بشموخها كما تركها صاحبها.. ولم يجد من أنيسٍ إلا القلم، يسطّرُ كل فكرةٍ تعيدُ الحياةَ للحياة، وتنحتُ في الجدرانِ العتيقة فضاءات الأملِ المنشود.

رُزقَ ريشة فنان، يرسمُ من خلالها ألوانَ الطيفِ المختلفة باختلافِ المجتمعِ والوجوهِ والأصوات.. طيفُ الحياةِ والموت ، وأطيافُ الرحيلِ والاغتراب، وطيفُ الاستبدادِ والفسادِ والجهلِ الضاربِ بأطنابه في جذورِ الحياة ..!

كان حلمُ والده أن يرى ولدَه كاتباً مرموقاً ، ينصرُ القيم، ويُحيي لهيبَ الحرية في الأرضِ الموات، وينشرُ عبير الأزهارِ في سماءِ البارودِ الغادر.. ولهذا دأبَ عباس لتنفيذِ حلمِ أبيه .

بدأ يكتبُ في نقدِ عاداتِ المجتمع السيئة ،وطرقَ زوايا خفيةٍ غشاها النسيان ، بصورةٍ أدبيةٍ سامية من خلالِ قلمٍ سَيّال يفيضُ نوراً وناراً، كان لا يلتفتُ لشيء وهو يكتبُ فيضَ الخاطر وبوحَ القلب ، فـ القلم - كما يقول - لا ينبغي أن يقفَ إلا في نقطةِ النهاية المرسومة له.

أتمَّ عباسُ كتابه وكان مسودةً مرقوماً بخطه . في الصفحة الأولى كتبَ:

"إلى الراحلِ الذي تمنَّى يوماً أن يرى قلمي هراوة تسحقُ الأفاعي والشياطين والمردة، وكل عناصرِ الشرِّ في الحياة، وتنتصرُ للحقِ والفضيلةِ والعدل، وتقفُ مع الإنسان ..!"

أُهدى هذا الكِتاب ..

مضى عبَّاس بمسودته يجوبُ كل الأماكنِ المخصصةِ لطباعة الكتبِ ودور النشر ، لكنّ أحداً لم يلتفت إليه .. كان قصيراً مكتنز الجسم يميلُ للسُمرة، يمتلكُ نفساً أبية، وقلماً لا حدودَ لإبداعه .

لم ييأس من طرقِ كل الأبوابِ المغلقةِ دونه.. كان يذهبُ لكبارِ الكتَّابِ والأدباءِ ويدفعُ بمسودته اليتيمة إليهم؛ فيشيحونَ عنه، والبعضُ يأخذها - حياءً - لـيكونَ مصيرها درجُ المهملات..

تحتَ ضوءِ القمر في ليلة شتاءٍ خامل؛ شكى لأمه ما يعانيه من نيرِ الإقصاءِ والتهميش، وطغيانِ الذاتية المفرطة ونسيانِ الأخر.. وبصوتٍ مليءٍ بالثقة أفضت إليه: سيكونُ لقلمكَ شأناً عظيماً فلا تبتئس ..!

في إحدى الليالي - في بهو مكتبة والده - قرر عباس أن يُنهي مسودته بإضافةِ فصلٍ أخير لـزياد العائد لحضيرةِ العقل والضمير ..

زياد شابٌ أُخرج من أروقةِ الجامعة ليكونَ سيفاً يحمي السلالة من السقوط .. تركَ الهندسة والمعرفة وسلكَ سبيلَ القتال ، رمى بالقلم وأمسكَ بالرصاص ،

ظناً منه أنه يحمى الوطنَ والملة! كان يطْربُ عندما يُنادى عليه " بالمُجاهدِ " زياد .. أخطأ فَهْمَ أبي تمام؛ فليسَ السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ على الدوام !!.

بعد مُضي عام من انخراطه في إسقاطِ الوطن المنهك ، وقتلِ الأبرياءِ الذي ظنَّ أنه يسعى لتحريرهم من ربقة الاستبدادِ والرق، وتفجير منازلِ المواطنينَ بصورة تتنافى مع أدنى مبادئ القيم والأخلاق ..! وقفَ في ذهولٍ يحاسبُ نفسه، ويستعيد ذكرياته ولياليه؛ وأصدقائه المتساقطينَ على أبوابِ عدن، وفي تخومِ الحالمة ..إنهم الوقودُ الذينَ تُسعرُ بهم نيرانُ الحروبِ العبثية ثم يتلاشونَ كأن شيئاً لم يكن ..!

ترك كل شيءٍ خلفه ومضى بعيداً عن الموتِ والدم، بعيداً عن الدمار وسحْقِ الإنسان، بعيداً عن الظلام والظلم .. سيعود زياد في يومٍ ما ليقولَ ما لم يقله عندَ رحيله .

عاد عباس مرة أخرى يتأبطُ مسودته يبحثُ عن أحدٍ يُخرج المسودةَ للنور، لكنه لم يفلح. فتملكه الإحباط، وشيء من اليأسِ كاد يُسْلمه للتوقفِ عن حلمه .

عندَ عودته لمنزله في ظهيرةِ أحدِ الأيام ؛ خائرَ القوى، منهك العزيمة ، شارد الذهن، وُجدَ - عباس - مُلقاً على الأرضِ من أثر ضربة تلقاها من سائقٍ طائشٍ يسابقُ الزمنَ بكل جنونٍ وصلف ، كان مضرجاً بدمائه وحزنه وأسفه ، ويده ممسكة بمسودته التي امتزجتْ بدمائه .

بعد مرورِ أربعة أعوامٍ من رحيلِ عباس ظهرت المسودةُ للنور من خلال أحدِ أصدقائه . حازَ الكتابُ على جائزةِ الأدب، وتمَّ تكريمه كأفضلِ عملٍ أدبي شبابي .. كُرم عباس " الشريد المتعالي" وتمّ اكتشافه كأديبٍ أثرى ساحة الأدبِ بعد رحيله ..!

" عندما ترتفعُ الروح، ينتشرُ شداها بينَ الخلق، فتُرى كما لم تُرى من قبل .. ويعيشُ - صاحبها - حياً بينَ الأمواتِ الأحياء، بعد أنَ كانَ ميتاً بينهم في لحظةٍ ما .. " مما كتبه عباس قبل مُضيه لعالمٍ أجمل .

في إحدى الأمسياتِ الأدبية التي أقيمت حولَ مسودة عباس الحالم ، عُرضت المسودة الأصل - تلفها دماءُ الراحل - للبيعِ في مزادٍ علني ، ليعودَ ريعها لإنشاء مركزٍ لصناعةِ الإبداع، ورعاية المبدعين المغيبينَ في ردهاتِ الزمنِ المظلم كعباس ومن على شاكلةِ عباس .

لقد قلتُ لك، أيها الرئيس، إنَّ كل ما يجري فوق هذه الأرض، غيرُ عادل، غير عادل!.. وأنا دودة الأرض، زوربا الحلزون، لا أوافق على ذلك .

نيكوس كازانتزاكي – زوربا

أرواحٌ مهاجرة

في كلِّ صباحٍ يمرقُ من ضجيجِ الليالي، ينتشرُ الخلق في جنَبَاته قصداً للبقاء، يحملُ المُعْدمُ قبساً من نوره يستضيءُ به في دهاليز الحياة، يخرجُ من منزله بحثاً عن لقمةِ العيش هنا وهناك، لا يسألُ الناسَ شيئاً صوناً لماء الوجه من أن يُراق، يعيشُ حياة الفقراء الكادحينَ القانعين بما تجودُ به أمواجُ القدر بين حين وآخر؛ كغيره من أبناءِ وطنه المنكوب ينتظر زورقَ الحياة للرحيل، فيلقي به في بطنِ الساحلِ وحيداً، ينتظرُ الأمواجَ القادمة من بعيد تهَبُ له شيءٌ من حياة.

لديه ثلاثةٌ من الأبناءِ كالأقمارِ عند اكتمالها، وزوجة صابرة تصارعُ آلام الحياة بصحبته بكل حبٍّ ويقين، في إحدى الليالي المُثقلة بالظلام، كانت تعالجُ آلام المخاض العسير، استبدَّ بها الألم، فارتفع الصوتُ الشاحب صارخاً يمزق سكون الأرواح القابعة في ميتمِ الحياة، طالَ الأنينُ بحجمِ الليل الثقيل؛ يأبى الرحيل عادةً تلذذاً بضحاياه .

أراد أن يأخذها إلى أقرب مستشفى لعلاجها، لانتشالها من مخالبِ الآلام التي لا تهادن، ومحنة الأيام التي تأبى الرحيل، لكنه لا يملكُ شيئاً، تحاملَ على نفسه بكبرياءٍ للذهاب بها إلى المستشفى، فلاحَ أمامَه الرفضُ منها؛ لأنها تعلمُ سوءَ حاله وقلة ما في يده، فازداد ألماً فوق آلامه، فغرق في وجعه.. واشتدّ وجعها حدَّ تمني الموت(ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً).

في لحظة ذهول أغلق باب المنزلِ على أبناءه - الصغار- وتوجّه يهرعُ إلى المشفى .. زوجتك بحاجةٍ ماسةٍ لـ تدخلٍ جراحي، إنقاذاً لحياتها وحياة الجنين

المُعرَّض للخطر، قال له الطبيب.. اسودَّتِ الدنيا في وجهه، وحاصرته سدود الليالي السرمدية، لكنه بشجاعةٍ وافقَ على إجراء العملية بمبلغها الباهظ متحديا كل السدود والصِعاب..

ترك زوجته في غرفة العمليات وخرج - كـتائهٍ يركضُ في أرضٍ يباب - يبحثُ عن ضمائرَ تنتشله من أزمته التي وقع في شباكها مضرجاً بالأسى، كان يحدث نفسه:

إنني من العجز قريب..

عاجز عن إسكات آلام من أُحب..

ولقد مضى حينٌ من الدهر، اعتصمُ فيه بحبل الأملِ المتهالك، ولا زلت كذلكَ.. فثبتني.

إنني اللحظة أبكي كسحابِ الربيع على قبورِ الأرواحِ المهاجرة، إنني أجهش بعبرات غزيرة حتى تبرز من أرضِ الفؤاد أشجار الياسمين والخزامى والورود، أستظل بظلالها وأرى الحياة من خلالها، فقد آلمني الجفاف، وطالَ بي التيه في صحارى اليأسِ المميت.

في أثناءِ سيره سقطَ أرضاً مغماً عليه بفعْل سكتةٍ قلبية مفاجئة دون سابق إنذار، دخلَ على إثرها العناية المركزة.

زوجته في غرفةِ العمليات وحيدة، وهو مسجى في الإنعاشِ فاقدٌ للوعي، وأطفاله الثلاثة في المنزل ليسَ معهم ما يسدّونَ به جوعهم ولا يعلمُ بهم أحد، ولم يتمكنوا من الخروجِ للقاءِ شمسِ الرحماتِ النازلةِ من السماء !

بعد ثمانيةِ أيام من فقدانِ الوعي، فارقَ الحياة، تاركاً خلفه امرأةً واطفالاً لا يَعلمُ عن حالهم شيئاً .. اكتشفوا بحوزته أوراقَ المستشفى واسم زوجته وموافقته على إجراء العملية .. في المستشفى وجدوا زوجته الكسيرة وبجانبها طفلها المولود وهي خائرة القوى.. سُئلت عن زوجها؟ فأخبرتهم أنه منذ أيامٍ خرجَ - يبحثُ عن تكاليف العملية- ولم يعد ، أخبروها بخبره، جنَّ جنونها، وطارَ عقلها، وخفق قلبها بين جنبيها خفقاناً، كاد يفلت زمامه من يديها، وتذكرت أطفالها في المنزل منذ ثمانيةِ أيامٍ بلا رفيق ولا صاحب .. كُسر بابُ المنزل - حيث يتواجد الأطفال - وذهبوا يتحسَّسونهم ، ينادونهم، لكنَّ أحداً لم يُجب، في إحدى غرفِ المنزلِ الصغير فارقَ الصغار الحياةَ بهدوءٍ دون ضجيج، ولم يشعر برحيلهم أحد .. نفذت أرواحهم من أجسادهم المُتعبة هرباً؛ للعيشِ في مكانٍ أجمل، لا يرون فيه شقاء والدهم، وعذابات الأم على مرِّ الأيام .

لم تتمكن من العيش بعد أن علمت بمصابِ فلذاتِ أكبادها.. ففي ذات صباحٍ وُجدت الأمُّ المسكينة متدليةً بحبلٍ طوّق عنقها وقد فارقتِ الحياة، مهاجرةً بروحها، تقتفي أثرَ من أحبتْ ، تاركةً ورائها نسمة حياة، وريثُ الأرواح المهاجرة، ذكرى أسرة قضتْ في طريقها لكفاحِ الحياة التي لم تبتسمْ لهم يوماً .

يا رسولَ اللّه:
غابتِ العدالةُ، وحلَّ الظُّلمُ، ونطقَ السفهاءُ باسمكَ، وتوارتِ القيمُ التي جئتَ بها، لقد تَرَكْنَا الروحَ التي بعثتها في مَنْ حولَك، وانتشرَ أوارها في الآفاق، وذهبنا نتشبثُ بشكلياتٍ لا قيمةَ لها!!

ليلة

في ليلةٍ من الليالي قبلَ أربع عشرة قرناً، قبل أن تصحو شمس ذلك اليوم من سباتها الطويل؛ ظهرَ من الرمالِ يتيمٌ كالقمر، عندَ خروجه كانتِ البشرية بائسةً حائرة، نشأ في الباديةِ كغيره من الأطفال، وعاش اليُتمَ والحرمانَ منذ صغره، لم يكن يعلمُ الصبي أن الرمالَ التي ظهر منها وفيها سوف تتنكرُ له يوماً ما !

عند ظهوره في القفار البيداء، بعيداً عن الأنظار، لم تشعر به الأبصار، وقد كانتِ الإنسانية المعذبة تنتظره منذ آلاف السنين! .

في صباه لم يدر في خَلده أنه الشخص الذي سيعمُّ نوره العالم، وأنه سيبددُ ظلام الممالكِ وظلمهم الضارب في حياة البشرية وإنسانيتهم!

عندما بلغ الصبيُ الأربعينَ من عمره تنكّرت له الرمال والصحراء، وهددتْ بابتلاعه وتصفيته، وقبل ذلك أصابته بحرِّها وترابها علّها أن توقف الطوفان الذي جاء به ليبتلع كل شيء عتيق يشقُّ جبينَ الإنسان!

في ليلةٍ من الليالي كان يتأمل في كل شيء حوله، يتساءل في نفسه أيُ قوم بُليتُ بهم! إنني هنا لـ أحررهم من أغلالهم ، من سلاسل عبوديتهم، من ظلام الجهل الغارقين فيه، من أنفسهم التي تأنف النور! أريد لهم كرامةً كتبها الله لهم ومنعها قـــادة الظلام عنهم ، سأستمر في نشر النور، لا بدَّ من النور ..

في ليلةٍ من الليالي كان الصبي قد بلغ الثالثة والستين من عمره طريحاً في فراشه العتيق، وقد مُلئ قلبه بالرضا وهو يتمتم : بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق

الأعلى، في تلك اللحظات كان قد أتمَّ ما بدأه، بدّد الظلام بنوره، وأخرج الإنسانية الحائرة من وحل الذل والتبعية، ورفع راية التوحيد والسلام والعلم في جبين الدنيا، وترنحت أكبر ممالك الدنيا بنور دعوته.

وأُعلن في عهده عن ميلاد الحياة، عن تحرر الإنسان، عن بناء العدل الذي شيّده بمبادئه وقيمه .

رحلَ الصبي الذي ظهر من رمال الصحراء في ليلةٍ ما، وترك أمةً من وراءه شيدت أعظم حضارة عرفتها البشرية، لكنهم سرعان ما خفت نورهم بسبب تشرذمهم وبُعدهم عن القيم العليا التي سطرها الصبيُّ وعلمها للدنيا كل الدنيا!

إنَّ البشر بأسرهم على مرِّ التاريخ مدينون لذلك الصبي، الذي حمل مشعل النور والهداية للعالم.

الفهرس

دار ضـــادّ للنشر والتوزيع والترجمة
Dar DAAD for publication, distribution and translation

اغتيال الربيع

في العاصمة زادني الفراغ و الغربة وحشة، أجترُّ أحزاني الدفينة، تارةً أغوصُ لأسبرَ أغوار نفسي, أبحثُ عن ذاتي في ثنايا الذات، وتارةً أخرى أطفو على سطحِ الواقع الجديد، أسيرُ وحيداً لا ألوي على شيء سوى تصفح وجوه المارة من حولي، أشتمُّ خطاها، أتحسّسُها في كل مكان، ثمة أملٌ يراودني أنني سأجدها هنا، لعلَّ القدر يقذفُ بها في ساحلي من جديد.

مريضٌ بُعضالٍ يُمنّي نفسه العافية. ولم يكن يخفِّفُ من وطأة تلكَ الوحشة سوى القلم، طفقتُ أسكبُ حزني الدفين على الورق ، بدأتُ رحلة البوح ، لعلي ألامسُ شيئاً من سكونٍ غادرني دون أن يترك عنوانه.

Scan